وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

محمد المزوغي

العقل في التاريخ.. منابع إسلاميات محمد أركون (1)

26 February 2008 03:27 pm

مِن الجدير الثناء على المفكرين العرب المحدثين وشُكرهم على كلّ ما قدّموها لنا مِن إبداعات علميّة وأدبية نحن الآن في أمسّ الحاجة إليها. لقد كان العالم العربي في يوم ما هو العالم الذي يُنتِج المعرفة ويُروّج لها خارج حدوده، ولكن مُنذ قرون خَلت، انقطع هذا المِدّ العلمي وسَكَنت روح الإبداع والمبادرة، وأصبح العرب عالة على الأمم الأخرى. وحتى التراث الإسلامي لم يُدرَس بكفاءة علمية متجرّدة إلاّ من طرف الغربيين، ومَكَث العالم العربي خارج حلقة الإنتاج المعرفي حتى في المجال الذي يخُصّه هو بالذات. لكن مفكرينا المحدثين، واعين بهذا النقص المعرفي الفادح، شمّروا على سواعدهم وبادروا هم أنفسهم بإنتاج المعرفة، وتحرير التراث العربي الإسلامي من احتكار العلماء الغربيّين. هذا عملٌ يُحمدون عليه، ولا يمكن إلاّ أن يُثلج صدر الإنسان العربي الذي يَبغي الإستقلال في إنتاجه النظري، والمساهمة في تقدّم المعرفة الإنسانية. لكن خَيبة الأمل تتربّص بنا من كلّ الجهات، ذلك حينما نعلَم أن المشروع النظري لبعض أولئك الرجال، هو ليس إلاّ استنساخا وتطبيقا لمشروع أُنتج في العالم الغربي . الذي يدّعون التخلّص منه . وهو في جوهره مشروع تَحُوم الشكوك حول مدى جِدّته العلمية وتقدّميته.

لا أودّ المبالغة إن قلتُ بأنها الكارثة التي أجهزت سواء على تلك القصدية النهضوية، أو على المشروع المعرفي ذاته. في هذا الإطار، كاتب هذه السطور يُدرج فكر محمد أركون ومُجمل انتاجاتها الفكرية القديمة والحديثة منها. ولكي لا يبدو حُكمي هذا متعسفا على رجل حاز شهرة كبيرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وعلا صيته في الأوساط الأكاديمية، سأعمد إلى البرهنة على ما أقوله بالدليل والحجة، مُتقيّدا بنصوص أركون لا أحيد عنها بالمرّة .

1. أركون في دنيا الإسلاميات:

من يَودّ التعرّف على جوهر مشروع أركون ومنهجيته في قراءة التراث ومقاربته للعقل الإسلامي فإن أركون ذاته يُقدّمه له بهذه العبارات: « إن مشروعي في نقد العقل الإسلامي يتمايز عن كلّ ما عداه ... فأنا أهدف إلى نقده بطريقة تاريخية، وليس بطريقة تأملية، تجريدية، سكولاستيكية...إن مشروعي هنا ينخرط ابستيمولوجياً في العُمق، بل وفي عمق العمق، ويختلف بالتالي عن كلّ مشاريع الفكر1». الفكرة المحورية هي أن نقد أركون للفكر الإسلامي هو نقد تاريخي بعيد عن التجريد، ومشروعه يختلف عما سواه من المشاريع الفكرية، نظرا لشموليته وعمق نظره. وهو يعترف بأن المشروع الذي اضطلع به لم يعهده عند المستشرقين ولم يَعثر عليه عند الدارسين العرب المحدثين؛ إنه مشروع معرفي جديد، فذّ وفريد من نوعه: « لم يَعتَد مؤرّخ الفكر على أن يجمع بين كلّ هذه الاهتمامات (الهموم)، ويفتتح كلّ هذه المنظورات، ويتابع كلّ هذه المهمّات في نفس الحركة الواحدة من الفكر والكتابة2». وبكلّ تواضع يعترف أركون بصعوبة تحقيق مآربه العلمية وإمكانية استكمالها في وقت قصير: « المشروع شديد الجدّة وشديد التعقّد إلى حدّ أنه يتعذّر انجازه تماما منذ المحاولات الأولى3». ومع ذلك فإن هذه الصعوبات لم تكن لتفقده الثقة بالنفس والإقدام الفكري ومحاولة إيضاح المسائل العويصة: يكفي أن الرجل يؤكد على حِرصه « الإلتزام بمبادئ المعرفة العلمية واحترام حقوقها مَهما يكن الثمن الإيديولوجي والبسيكولوجي والإجتماعي الذي ينبغي دَفعَه للقيام بذلك (أو نتيجة القيام بذلك) باهظا4 .»

ولكن، أكثر ما يحرص عليه أركون هو التركيز على تَفرُّد آفاقه النظرية وجدّتها وتفوّقها على ما عداها من المشاريع الفكرية الأخرى، علاوة على طُول نَفَسها، وتشعّبها وغورها في حقول فكرية مختلفة. فهو لم يَترك شيئا من إنتاجات الروح إلاّ وأخضعه للفحص العميق والدرس المتأني، وأحاط بكلّ جوانبه، بما في ذلك الأعمال الأدبية البَحتة » :إن هذا البرنامج الضّخم من التفحّص والبحث المتمثّل في فَهم كل المنتجات الثقافية العربية (بما فيها الأدب بالمعنى الصرف للكلمة) من الناحية السوسيولوجية والأنتروبولوجية والفلسفية هو الذي أحاول تنفيذه والإحاطة به. إن هذا البرنامج يختلف عن برنامج بروكلمان وفؤاد سيزغين المتمثّل فقط في جرد المؤلفات العربية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإحصائها. إنه برنامج نقدي بمعنى دراسة شروط صلاحية كلّ المعرفة التي أنتجها العقل ضمن الإطار الميتافيزيكي (هكذا sic,) والمؤسساتي والسياسي الذي فرض عن طريق ما كنت قد دعوته بالظاهرة القرآنية والظاهرة الإسلامي5.»

ما هي المصادر الأساسية التي رجع إليها أركون لتحقيق مشروعه هذا؟ وما المناهج التي اتّبعها لقراءة التراث الإسلامي وتأويله؟ ليس من السهل الإجابة عن هذه الأسئلة، لأن أركون لم يُقرّ صراحة بدَينه الكامل للثقافة التي هي أقرب إليه من غيرها، أعني الثقافة الفرنسية، لقد استخدم أطروحاتها ومقولاتها واستعار مناهجها، ولكنه في فترة لاحقة أنكر ذلك بشدّة وادعى أنه لم يُسقط على الإسلام طُرق تفكير مغايرة له .

لكن المتتبع لفكر أركون والمطلع، عن كثب، على مجمل انتاجاته النظرية يستطيع بسهولة أن يحدس الحقيقة التالية، وهي أن مصادره الأساسية لا تتعدى مجال الفكر الفرنسي، وما يُدعّم ذلك هو التطابق الواضح بين أطروحاته الفكرية، وخلاصة أعمال أولئك المفكرين التي امتمدّ تأثيرها من السبعينات إلى آواخر التسعينات من القرن المنصرم. والسّمة المميّزة لتلك التيارات الفكرية التي رجع إليها أركون، هي اللاعقلانية ومُعاداتها، حتى الموت، للعقل النظري والتنوير. إنها تيارات فكرية رسّخها بعض الفلاسفة الفرنسيين مِن أتباع نيتشه وهايدغر، الذين ركّزوا نقدهم على العقل العلمي التنويري لزعزعة أسسه المنطقية والتقليل من شأن أهدافه التحرّرية، فاتحين المجال لكلّ أصناف اللاعقل، مِن الجنون حتى الشعر والخيال والأسطورة، بوضعها على قدم المساوات في إنتاج المعنى من العلوم والفلسفة6. لقد تلقّف بعض المثقفين العرب، ومن بينهم أركون، هذه الأفكار، وركّزوا عليها تحاليلهم وأعطوها أهمية تفوق قيمتها الفعلية، وتِلكُم كانت أمّ الكوارث. ويمكن اختزال هذه المواقف في بعض المبادئ التي أجمعت عليها كلّ تلك الفرق:

العَداء، الضمني أو الصريح، للعقل والعقلانية والحطّ من قيمة مبادئ التنوير ومعارضتها لا لشيء إلاّ لأنها تركّز أساسا على إرادة التخلّص من الدين ومن أسْر الأسطورة والخرافة والفكر اللاعقلاني ككلّ .

ردّ الإعتبار للدين والوحي والأسطورة والشعر والخطابة وإدماجها في لعبة العقل أو إدماج العقل ذاته في لعبة اللاعقل7 .

العداء للتاريخ الوضعي ومهاجمة المستشرقين ورفض العلمانية، أعني فكرة فصل الدين عن الدولة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

واعتبارها كارثة على المجتمعات البشرية .

إعادة تأهيل ما يسمّى بالكتب المقدّسة والإدعاء بحيازتها على معنى روحي متعالٍ، وبأن ذلك المعنى يُمكن سبره عن طريق دراسته دراسة بنيوية، سيميائية لسانية . النّسبويّة، والسّياقية والسلطوية: ليست هناك حقائق ثابتة يمكن للعقل أن يتوصّل إليها وليست هناك أخطاء يقدر على كشفها وتصحيحها، بل كلّ الآراء قد تتساوى إذا ما وُضعت في سياقها وانسجمت مع مقدماتها. ثم إنّ غياب المعيار الذي يَفصل بين الصواب والخطأ يجعل من كلّ حقيقة وكلّ إنتاج نظري أمورا مربوطة بالذات، يعني بإرادة القوّة وبالسلطة التي ترغب في تمريرها على أنها كذلك .

الإزدواجيّة في الرأي وعدم الثبوت على فكرة واحدة ونقض المواقف السابقة وتقديم تعريفات وضمانات منهجية ثم خرقها أو إضعاف مفعولها وزحزحة المصطلحات عن معانيها الثابتة، ثمّ الساديّة (sadisme) في الكتابة، أعني الإطالة والثرثرة والتقعّر . يمكن أن نعدّد الكثير من "المسلمَات" الأخرى التي بُنيَت عليها تلك النظرة العدمية ولكننا نرى أنه من الأجدر الاكتفاء بهذا القدر والعمل على ربطها بنصوص محمد أركون.

2. أركون بين التراث والتجديد :

إن قارئ أركون يتفطّن منذ البداية إلى أن الرجل في دراسته للفكر الإسلامي وللقرآن خصوصا يُريد لأعماله أن تكون مغايرة لصنفين من المقاربات النظرية: الصنف الأوّل يشمل كلّ التفاسير القديمة الموروثة وصولا إلى التفاسير الإسلامية الحديثة، والتي تتميز بإطارها المعرفي العقائدي الدوغمائي8، والأخرى هي المقاربة الإستشراقية التي تعتمد التجرّد والموضوعية والسرد التاريخي للإحداث والتثبّت من صحتها، وذلك باستعمال المنهج الفيلولوجي والتحليل النقدي الوضعي.

المنهج الذي ارتآه أركون لدراسة الخطاب الديني هو منهج التحليل والتفكيك، وليس الهدف منه هو هدف عقائدي، كما الحال عند المؤمنين، ولكن أيضا ليست غايته منازعة الدين وشطبه من مجال الفعاليات البشرية، كما فعل المستشرقون، بل إنّ: « تحليل الخطاب الديني أو تفكيكه يتمّ لا لتقديم مَعانيه "الصحيحة" وإبطال التفاسير الموروثة، بل لإبراز الصفات اللسانية اللغوية وآلات العرض والاستقلال والإقناع والتبليغ والمقاصد المعنوية الخاصة بما أسميته "الخطاب النبوي"9.»

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

التفكيك والنقد، عند أركون، لا يؤدّيان أساسا إلى استخراج أيّ مَعنى يُشفي فُضول القارئ ويَنزع عنه حِجاب الأوهام التي دامت قرونا من الزمن؛ وليس من مشمولات عَمله نقد التفاسير القديمة وإظهار بطلانها أو إجحافها، بل إن الرجل ـ مُنذ البداية ـ يُعلن أن هدفه يقتصر فقط على إبراز الصفات اللسانية اللغوية للخطاب النبوي، أي للقرآن.

حقّا هذا قليل! قليل جدّا، بالمقارنة مع عظم مشروعه وضخامة برنامجه النظري، الذي ما فتئ يتباهى به في كلّ كتاباته. بل إن أقوال أركون هي دليل على اليأس من الحقيقة، وعدم البَتّ في شيء والتملّص من مهمّة النزول إلى التفاصيل وسبر أدبيات التفاسير الموروثة التي تَرَبّت عليها أجيال عديدة والتي، بمعنى ما، مَزجت الأساطير والخرافات بالواقع وحاولت البرهنة على قدُسية النصّ، وإخراجه من حيّز الزمان والمكان. وهذا الأمر ـ مِن وجهة نظر موضوعية متجرّدة من أي همّ ديني ـ لا يَرجِع في النهاية إلى تلك التفاسير بحدّ ذاتها، ولكن إلى النصوص الدينية التي تندرج في إطار نظرة أسطورية لاعقلانية للأشياء. أركون لا يَبُتّ في شيء ولا يرغب في تقديم أي تفسير علمي أو موضوعي للقرآن. لكن هذا لا يعني أنه اختار لنفسه، ما يُسمى في أدبيات الفينومينولجيا، " تعليق الحكم" ريثما تتبيّن عنده الأمور بعد التعمّق في البحث والتحليل، بل إن مواقفه الغير محدّدة تخضع، في أساسها، إلى خيارات نظريّة مُسبقة، ولها أبعاد إبستيمولوجية انتُقيت بدقّة. ولقد بَقي الرجل صامدا، معتصما بنهجه هذا ولم يتزحزح عنه قيد أنملة منذ عقود: الأضداد غير موجودة، والثنائيات المتضادة مثل » العقل/ الإيمان، قانون الوحي/ قانون بشري وضعي، حقيقة /ضلال، صواب/ خطأ، خير/ شرّ، معنى مجازي/ معنى حقيقي» هي الآن، حسب أركون « في طريقها للإمحاء والتجاوز10 .«

هذا ما قاله في الثمانينات من القرن المنصرم، ثم رَدّده على مسامعنا، إسوة بالنيتشويين الفرنسيين، في أواخر التسعينات، دون تريّث أو مراجعة أو حتى بصيص من النقد. يقول في كتابه المتأخر " قضايا في نقد العقل الديني": « وقد استمرّ العقل الحديث قبل مجيء ماركس ونيتشه وفرويد في استغلال تلك المزدوجات الثنائية الضدّية التي طالما استغلّها الفكر القروسطي حتى شبع منها. أقصد بذلك المزدوجات التالية: خير / شر، صحيح / خاطئ، جميل / قبيح، مادّي / روحاني، فان / باق، حلولي أو مثولي / منزّه أو متعال...إلخ11». لم يكتف العقل الحديث بهذا الإرث

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

القروسطي بل إنه أضاف إليه متضادات أخرى « تاريخي / أسطوري، مقدّس / دنيوي، ديني / سياسي، كنيسة / دولة، روحي / زمني...إلخ12.»

كل من يبحث عن الحقيقة ويبغي تجاوز التناقضات، أو يرغب في حلّ الإشكالات والبتّ عقلانيا في أيهما أصحّ القضية أم النقيض، هو قروسطي. هذا كلام مُحيّر حقّا، بل إنه خطير جدّا على الإنتاج المعرفي، لأن مواقف من هذا القبيل لا تؤدّي، في نهاية المطاف، إلاّ إلى نوع من العدمية النظرية واليأس من طلب المعنى والإستسلام إلى الريبية في معناها الأكثر شراسة .

هل يعني ذلك أن أركون رجل تنعدم عنده الحقائق ودوغمائي في تشبثه بهذا الرأي؟ أم أنه يفتح مجالا للإيمان مُنبطحا كلّياً على مواقع دينية إيمانية؟ لا يمكن أن نقرّر ذلك أو ننفيه مسبقا. فالرجل ينقد بجدّ الأدبيات الإسلامية القديمة والحديثة التي تُكَفّر الملل والأديان الأخرى وتقسم البشرية إلى معتنقي الدين القويم، الناجين وإلى ضالّين وزائغين. إن أصحاب هذه الفكرة، يقول أركون: « ما كان في إمكانهم أن يتحرّروا من النظرية اللاهوتية القائلة بالدين الحقّ من جهة وبالنحل والأهواء الضالة من جهة أخرى13». وهذه النظرة الإقصائية لا تخصّ الدين الإسلامي وأصحاب الكلام، بل هي سِمَة مستقرّة وثابتة تميزت بها ذهنية كلّ الأديان التوحيدية. فعلا، لقد « شاعت هذه الذهنية في اليهودية والمسيحية والإسلام» وهذا أمر خطير للغاية والأخطر منه هو أن هذه النظرة الإقصائية « قد أيّدت ولا تزال تُؤيد وتُعطي المشروعية لحروب متتابعة متجدّدة في كلّ زمان ومكان14.»

هذا صحيح؛ الأمر بيّن للعيان، ومَن يقرأ الكتب المقدّسة فإنه لا يتمالك من أن يَنزَعِج أمام تلك الشُّحنة المستقرّة من العنف اللفظي في حقّ من لا يؤمن بالدين الحق، ولا يتّبع ما جاء به الأنبياء، وبالتالي لا يبقى لمن خرج عن تلك المنظومة الإيمانية إلاّ الإستتابة أو الإقصاء والتقتيل. إنه التعصّب الديني الإيماني بعينه، وهو أمر مربوط باللاعقل أساسا وباعتقادات وخرافات وقناعات ماورائية في تضارب مع أسُس العقل التنويري ومع شمولية مبادئه. ومن الواضح أنه على هذا الأساس يمكن القول، دون إجحاف، بأن الأطراف المسؤولة عن التعصّب الديني هم بالدرجة الأولى حاملي تلك الرسالة وكُتبهم أو مَن دوّنها عليهم، والتي يكفي فقط أن يَطّلع عليها المرء بعين ناقدة، حتى يصطدم بتلك البداهة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولكن أركون له بداهة أخرى وتصوُّر مُغاير للأشياء: المسؤولية، حسب رأيه، يَتقاسمها التديّن وعقل الأنوار والحداثة على حدّ سواء؛ هذا على الرغم من أنه يعترف بأن التنوير قد عارض التزمت والعصبية الدينية ونادى بالتسامح، لكن كلّ هذه الميزات لا تشفع له اطلاقا، إذ أنّ عقل الأنوار: « الذي دعا إلى التسامح وحارب العصبية الدينية والطائفية والدوغمائية والإنعكاف على "مصالح" الأمة أو الملّة ورفض كلّ ما هو خارج عن تلك "المصالح"، أقول من الملاحظ أن تلك الحداثة الفكرية فشلت في تعميم "الأنوار "الحديثة والتخلّي عن ذهنية التحريم أو التكفير والحروب الدينية وإحلال ذهنية الأنسنة المتفتحة محلّها15». وما السبب في ذلك يا ترى؟ وفيمن يُخاطب أركون؟ وهل أن التنوير، بمبادئه العقلانية وتشريعه لحقوق الإنسان، وتوقه لتحرير الوضع البشري من الاضطهاد والقمع والظلم والخرافة، هو المتّهم، أم أن المتهَم الرئيسي هو الحركة المضادّة والرجعية التي تبغي المحافظة على الأشياء كما هي وقهر الإنسان وتأبيد الأسطورة واللاعقل؟

بناء على أسُس ابستيمولوجيا أركون يبدو أن التنوير هو المسؤول عن ذلك، ولا دخل للذهنية الدينية الدغمائية، لأن الرجل ـ كما سنرى لاحقا ـ يعارض العلمانية، التي هي نتاج التنوير، ليس معارضة فكرية منطقية، بل يَسبّها جِهارا ويَحتقر معالمها. أما بخصوص العلّة التي أدت إلى فشل الأنوار16 في الوفاء بوعوده فهو يُرجعها إلى أن: « العقل الحديث لم يتقيّد بتعاليم الأنتربولوجيا الحديثة [المتأتية من الغرب]، وإنما اكتفى منذ القرن التاسع عشر بالغرب وحصر نفسه فيه17». هل فعلا هذه هي العلة الكافية لتفسير تلك التهمة المفتَعلة، أعني عدم وفاء الأنوار بعهده في تحرير الإنسان؟ وكأنّ الأنثربولوجيا هي المخلّص وكبش الفداء في نفس الوقت، علاوة على أن هذه المأساة تدور دائما في الغرب. فالأنثربولوجيا الحديثة المحمودة ـ حسب أركون ـ متأتية من الغرب أما تلك المذمومة، أعني الأنثربولوجيا "الغرب ـ مركزية"، فهي أيضا واردة من الغرب. الكلّ يَعلَم أن الذين نقدوا الأنثربولوجيا الإستعمارية وتفطّنوا إلى أرضيتها العنصرية التفاضلية هم من العلماء الغربيّين، وقد تصدّوا لها وفندوا مزاعمها وجعلوها تتراجع عن مواقفها اللاعلمية. إذن، بِضاعتنا رُدّت إلينا، كما اعترض بعضهم على أركون. أمّا الذين أقدموا على نقد التنوير فهم فصيلة رجعيّة من العالم الغربي حدست المخاطر الكامنة في تلك الثورة النظرية من تحرّر فكري وما يمكن أن تفيده عَمَليا للخروج من الدين وتخليص الناس من الأوهام والخرافات، وقد كانوا، في فرنسا، من زمرة المحافظين الملكيّين ومَن نحا نحوهم من المؤمنين وحرّاس الدين من الإكليروس المتشدّد: ألدّ أعدائهم هو الفكر العقلاني والتنوير والمادية، ومبادئ الإنسانوية والمساواة والكلية، وهي مبادئ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إن فُعِّلتْ على أرض الواقع، فإنها ستَقضي على أساطيرهم الدينية وتُدمّر معالمهم التفاضلية الهرمية، أعني عنصريتهم في التعامل مع الخلق. إذن لا الأنثربولوجيا الحديثة ولا شيء آخر، بل عوامل سياسية واجتماعية وإيديولوجية كلّها مُوجّهة ضدّ الفكر الحرّ وغايتها هي معارضة فكرة انشاء مجتمع علماني خال من الأساطير والخرافات .

أركون يخاطب الغرب كمؤدّب، ويؤنّبه على استفزازاته تجاه الشعوب الأخرى، لكن الوضعية ليست على أحسن حال في العالم الإسلامي. فعلا، لقد بقي هذا الأخير « أبعد ما يكون عن ممارسة الفكر الأنثربولوجي بالمعنى الواسع الذي ندعو إليه، من العقل والثقافة والتفكير السائد في الغرب18». الحلّ الوحيد الذي ارتآه، للخروج من التخلف الفكري، هو النهل من ذاك العِلم (الغربي) أعني الأنثربولوجيا، وكما عادة الرجل في مزج همومه الحياتية وسيرته الذاتية في دراساته وتحاليله العلمية يقول: « فقد ألحَحتُ ومنذ سنوات عديدة على ضرورة دراسة العلم الأنثربولوجي وتدريسه. فهو الذي يخرج العقل من التفكير داخل "السياج الدوغمائي المغلق" إلى التفكير على مستوى أوسع بكثير: أي على مستوى مصالح الإنسان، أيّ انسان كان. كما أن العلم الأنثربولوجي يعلّمنا كيفية التعامل مع الثقافات الأخرى بروح منفتحة متفهّمة، وضرورة تفضيل المعنى على القوّة أو السلطة، ثمّ تفضيل السلم على العنف، والمعرفة المنيرة على الجهل المؤسس أو المؤسساتي19.»

هذا الإطراء لعلم الأنثربولوجيا الحديث وتنزيهه والإعلاء من شأنه، لا ينبغي أن يَستثير حماستنا أكثر من اللازم، ولا يجب أن يُخيفنا، لأن هناك شُكوك جمّة في أن الأنثربولوجيا، التي يدعو إليها هذا الرجل، أعني أنثربولوجيا ليفي شتراوس ومَن دار مَدارَه، تُخرج الإنسان من التفكير الدغمائي وتعلّم الناس، بالفعل، كيفية التعامل مع الثقافات الأخرى بروح إنسانوية مُنفتحة.

ولكي لا نَبقى في العموميات يجب الدخول في التفاصيل، وآخُذ مثالا عينيا عن ذلك: معلوم أن الثقافة اليمينية في أوروبّا ما زالت على حالها من حيث عدائها للآخر وتشبثها بمواقفها العنصرية، حتى وإن أقلعت أخيرا على إلباسها لباسا بيولوجيا وأصبحت من دعاة التفاضل الثقافي واستحالة تقريبها لبعضها أو اختزال خصوصياتها. ماذا فعلت الأنثربولوجيا، العزيزة على أركون، لمقاومة ذاك المنحى العنصري ولِنَقده؟ لقد فعلَت القليل أو أنها لم تفعل شيئا بل، في بعض الحالات ـ ربّما عن غير قصد ـ دعّمَت ذاك المنحى العنصري التفاضلي وجَذّرته20، وأحد أولئك الذين ساهموا في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

تدعيمها هو ليفي شتراوس الأنثربولوجي الفرنسي الذي جعل منه أركون سلطة عليا ومن علمه مثالا يُحتذى به.

أجل إن الفكرة العزيزة الآن على اليمين العنصري، أعني "التفاضل الثقافي" أو "عنصرية الإختلاف"، موجودة في فكر ليفي شتراوس. فمفهوما "العرق" و"الثقافة" هما مفهومان متناوبان عند شتراوس، أي ينوب أحدهما الآخر. إن دراستيه: " العرق والثقافة؛ والعرق والتاريخ" (الأول سنة 1952 والثاني سنة 1971) قُوبلتا باستنكار وتمعّض في أوساط اليونسكو التي نظّمت تظاهرة عالمية ضدّ العنصرية، واستدعت الأنثربولوجي الفرنسي للتحدّث في هذا الموضوع.

ليفي شتراوس لا يرفض مفهوم العرق(Race) ، بقدر ما يُعارض فكرة وجود ملكات طبيعية نابعة من العرق ويمكن البرهنة عليها علميا21. ولكي يفسّر الإختلافات بين الناس ارتأى مفهوم الثقافة، كعامل مُحدّد للتفريق بين المجتمعات البشرية: « كما أن ثقافتين أنتجهما أناس ينتمون إلى العرق نفسه يمكن أن تختلفا بقدر ما تختلف ثقافتان تعودان لأناس ينتمون لمجموعات عرقية متباعدة وربّما أكثر منها22». الثقافة هنا عَوّضت الإختلافات البيولوجية التي ركّز عليها العنصريون في فترة تاريخية ما، وأصبحت هي العامل المميّز بين المجتمعات البشرية. هكذا يقول في مقاله لسنة 1971: « عوضا عن التساؤل هل أن الثقافة هي دالة تابعة للعرق أم لا، نكتشف أن العرق...هو من بين مختلف الدوال التابعة للثقافة23». يعني هذا أن مَن يُولد في ثقافة ما فإنه يبقى مسجونا فيها إلى الأبد، و يَجُرّ وراءه إرثه الثقافي المطبوع فيه أينما حلّ « من المعروف أن ابن أية ثقافة مُتضامن معها تضامنا وثيقا كما هو ذلك المسافر المثالي في قطاره. إذ أنه منذ ولادتنا، تُدخل فينا بيئتنا، عبر ألف طريقة واعية وغير واعية، نظاما معقدا من المراجع، المكوّنة من أحكام قيمية، ودوافع مراكز اهتمام»، النتيجة هي أننا « نتحرّك حرفيا مع نظام المراجع هذا24». إن الاختلافات الثقافية والتباعدات بين نظرة كل واحدة منها إلى العالم، تخلق حواجز « لها نفس طبيعة تلك البيولوجية؛ فهي تنتج اختلافات يمكن مقارنتها بتلك التي تقوم بين الأعراق؛ مفضّلة بعض النماذج الفيزيائية عن أخرى، تثبّتها، ثم تنشرها». لقد تحوّل مفهوم الثقافة إلى بديل من ذاك التحديد البيولوجي العنصري، ولكنه حافظ، في نهاية المطاف، على نفس خاصيات العرق التي تسجن الإنسان في حتمية مُطلقة. النتائج التي أخلص إليها ليفي شتراوس، كارثية حقا: لقد أدته النسبوية الثقافية إلى مناهضة الدعوة إلى المساواة والأخوّة وقال بأنها طموح

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مخيب للآمال: « المطالبة البسيطة بالمساواة الطبيعية بين جميع الناس وبالأخوّة التي يقتضي أن تجمع بينهم، دون تمييز بين الأعراق والثقافات، يحمل بعض ما هو مُخيِّب للفكر25». ليس هناك إنسانية موحّدة؛ وإعلانات حقوق الإنسان غير مقنعة وهي عرضة للإلتباس لأنها « تحمل هي الأخرى في طياتها، قوتها وضعفها باعلانها مثالا غالبا ما يَنسى حقيقة أن الإنسان لا يُحقق طبيعته في إنسانية مجرّدة، ولكن في ثقافات تقليدية26». أما القول بأن تنوّع الثقافات ليس إلاّ عرضا ظاهريّا، لأن مقولة الإنسانية تشترك فيها بالتساوي كل المجتمعات، وبالتالي فإن القاعدة هي المساواة الطبيعية والنشاز هو الإختلاف الثقافي، فإن شتراوس يقذف بهذا الرأي في عالم » التأملات الفلسفية الإجتماعية» التي استسلم إليها الإنسان الحديث. المبدأ الأساسي هو أن يَعي كلّ واحد منّا بأن « الثقافات الأخرى مختلفة عن ثقافته بأكثر ما يكون من التنوّع27». وهذا ما أدى بالأنثربولوجي الفرنسي إلى اصدار حُكمه السلبي على "مناهضة التمييز العنصري"؛ فعلا، إذا كانت الثقافات هي الخصوصيات المحدِّدة للبشر، فإن أي محاولة لتوحيد الإختلافات يؤدي إلى محو ثراء الثقافات وتعدّدها: « لا يمكن أن نُخفي على أنفسنا، رغم أهميته الضرورية والعاجلة في الميدان العملي والغايات الثقافية العالية التي يصبو إليها، أن الصراع ضدّ كل أشكال التمييز [العنصري] يساهم في تلك الحركة التي تجرّ الإنسانية نحو حضارة عالمية، مدمّرة للخصوصيات العتيقة التي لها الأسبقية في خلق القيم الجمالية والروحية التي تعطي معنى للحياة28.«

مُدهشة اعترافات شتراوس في محاورة له مع ديديه إريبون (Didier Eribon) الذي نشرها في كتاب بعنوان " مِن قريب ومِن بعيد .(De près et de loin) " لقد اعترف هو نفسه بأن عمله أحدث فضيحة في أوساط اليونسكو (il a fait scandale à l'UNESCO)، ولا يمكن أن يكون إلاّ كذلك لأن الرجل دافع عن مُنظّر العنصرية المعروف غوبينو (Gobineau) مُدعيا بأن هذا الأخير لم يكن عنصريا أو امبرياليا كما يُعتقد، وكشف لمحاوره حقيقة أن كُتبه تحتوي على الكثير من الشواهد المقنَّعة (أو المكشوفة) المستمدّة من كتاب غوبينو" لاتساوي الأعراق" (مثلا في آخر صفحات ‘‘المدارات الحزينة’’ وكتاب ‘‘أساطير’’). فأفكار غوبينو، بالنسبة لشتراوس لا تلعب فقط دور المصحّح للطريقة الخاطئة التي قرئ بها عمله "العرق والتاريخ"، بل هي الأرضية النظرية التي انطلق منها في كتابته ذاك العمل. (انظر، ديديه إريبون ‘‘من قريب ومن بعيد’’ باريس، طبعة 2001، ص، 206 ـ 207، وانظر أيضا الباحث الإيطالي غروتانيلّي الذي كشف عن عنصرية دوميزيل (Dumézil) و شتراوس في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كتابه، إيديولوجيات، أساطير، إبادات (C. Grottanelli, Ideologie, miti e massacri, Palermo 1993, p. 167 - 169). لقد قال بأن اختلاط الأعراق يؤدي إلى الموات الحراري (Entropie) ويسكّن صيرورة المجتمعات، وهذه التخمينات استقاها مباشرة من غوبينو، وحتى رفضه لإمباريالية الرجل الأبيض، التي شرّع لها غوبينو، فهو رفض جزئي إن لم يكن في الحقيقة تسليما مقنعا. فبالنسبة إليه، الرأسمالية (والإمبريالية (هي الدواء الأخير لمرض تلاقح الشعوب، الذي قد يؤذن بتفسّخ خصوصياتها إن لم تحاول حماية نفسها، ولقد قال هذا في النص الذي طلبته منه منظمة اليونسكو لمجابهة مشاكل العنصرية في العالم، أعني "العرق والتاريخ". الأنثروبولوجي الذي من المفروض أن يكون منفتحا على الآخرين وأن يعي بأن تنوّع الثقافات، لا يحول دون تقاربها وانصهارها، هذا الرجل الذي من المفروض أن يَقِيه علمه، الذي أثنى عليه أركون، أعني الأنثربولوجيا، من السقوط في فخّ الأحكام المسبقة، ها هو ذا يقول بالحرف: « إن الاحتكاكات الوجيزة التي جمعتني بالعالم العربي وَلّدت في نفسي كُرها غير قابل للإجتثاث» (من رسالة بعث بها إلى رايمون آرون)، ونفس هذا الشعور اختلجه إزاء البلدان الإسلامية، واعترف بذلك في "المدارات الحزينة". لكن الأدهى هو أنه يُبرّر قرفه من الشعوب العربية الإسلامية، ذاكرا نفس الحالة التي انتابت عالم اثنولوجي أمريكي إزاء بعض القبائل من سكان أمريكا الأصليّين .

أنا لا أودّ التشكيك في علم الأنثربولوجيا، أو أتعمّد مصادرة مجهودات العلماء بالكامل، لكننا ينبغي أن نتّخذ الحذر من تلقي هذه الأشياء الغث والسمين منها، واعتبار ذاك العلم طريقا يؤدي بالضرورة إلى الإنفتاح والمثاقفة .

3. عيّنات من مبادئ العقل المُجتثّ :

ليس هناك عند أركون تفاضل هرمي، في القدرة المعرفية، أو حتى تعارض نظري، بين الإنتاجات الثقافية المختلفة (الأسطورة والخيال؛ الدين والعلم؛ الفيلولوجيا والتاريخ المقدّس...إلخ) بل الكلّ يتكافؤ، ولا يمكن تأصيل أي فكر ولا الثبوت على رأي واحد لأن الأصل لا وجود له. مَدفوع بإحدى التخريجات اللاعقلانية المعاصرة لفلاسفة فرنسيين مثل فوكو ودريدا ودولوز، التي تزعم أن لا شيء يملك في ذاته مبدأ استقراره ولا أصل يمكن تأصيله، فإن أركون تلقّف هذه الفكرة وجَعل منها مدار إشكالاته ومركز همومه النظرية المتحوّلة والمنقلبَة على ذاتها باستمرار: « أردتُ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

قبل كلّ شيء أن أنقد مفهوم الأصل وعملية التأصيل، أو بالأحرى الإدعاء لإمكانية التأصيل لفكرة ما، دينية، أم علمية، أم فلسفية، أم أخلاقية، أم سياسية، أم اقتصادية، أم اجتماعية[29]». إذن ليس هناك حقيقة على الإطلاق وفي أي مجال من المجالات، ومَن كان يَرغب في اكتناه حقائق الأمور، بموضوعية وتجرّد، فإن أركون يُثبّط من عزمه، منذ البداية، ويُشعِره بأنه خاسر لا محالة في أول محاولة للدخول في معمعة الفكر. العقل الإنساني بإمكانه أن يتوصّل إلى الحقيقة إذا مارس عمله طبقا لقواعد دقيقة واتّبع منهجيّة تجريبية صارمة، هذا الإعتقاد هو الذي حرّك العلماء وجعَلَهم ينتجون نظرياتهم العلمية ويكتشفون قوانين الآلة الكونية. لكن أركون يدحر هذا الرأي ويُسميه ادعاءات العقل الكلاسيكي التي كانت سائدة « قبل أن يُنقَّد منطق أرسطو...على يَد العلم الحديث[30]». نحن الآن انتقلنا، على حدّ قوله، إلى مرحلة جديدة، مرحلة "نهاية اليقينيات" حسب عبارة عالم الإبستيمولوجيا البلجيكي إيليا بريغوجين[31] .

الإنسان، إذن، مُؤطّر في النّسبويّة ومأسور في اللاحقيقة، ودنياه التي يعيش فيها ولُغته ومؤسساته هي سجن مؤبّد لا تترك له فُرجَة للنظر إلى العالم بموضوعية، ولا تُمكِّنه من استمداد أي نوع من اليقينيات. فعلا، هناك قاعدة معرفية لا مَحيد عنها، إنها قاعدة راسخة في منهج أركون الإبستيمولوجي، تؤطّر آلياتنا الذهنية « وتُلزِم العقل إلزاما مطلقا في جميع إنتاجاته الفكرية والعملية. وهي قاعدة مرتبطة بالوضع اللغوي والمدني والاجتماعي الذي ينشأ فيه الإنسان ويتقيّد به العقل في جميع نشاطاته وممارساته. تقول هذه القاعدة ما يلي: إن كُلَّ جُملة يَنطق بها متكلّم ما بِقَصد التأصيل تُحيل بالضرورة إلى مستويات مترابطة من التفكير والتعبير وإيجاد إلزام للمعنى[32]». هذه تُسمى في أدبيات الفلسفة "مُفارقة السفسطائي" وهي شبيهة، إلى حدّ ما، بـ"مفارقة الكذّاب" (paradoxe du menteur): [33] مَن يَنفي التأصيل فهو نفسه يُؤصّل؛ إذا كان كلّ سلب هو إيجاب ما، فإن نَزْع التأصيل هو بدوره تأصيل. السفسطائي الذي يرفض الإقرار بمبدأ عدم التناقض مثلا، يَعترف به ضرورة حتى في رفضه إياه، لأنه يُثبِتُ بأحكامه وأقواله، وبأفعاله أيضا شيئا ما، حتى وإن كان ذاك الشيء هو رفض تأصيل مبدأ عدم التناقض[34]. فأطروحة أركون هي أيضا تأصيل لشيء ما، حتى وإن كانت في جوهرها استأصال. لكن أركون لا يعبؤ بدقائق المفارقات الفلسفية، بل إنه يتباهى بتلك النسبوية ويُدعّمها بمقولات الفلسفة المعاصرة التي، حسب زعمه: « ترفض التفكير في الحقيقة بصِفتها مؤصَّلة أو قابلة لتأصيل أنطولوجيا، ومنطقيا ومفهوميا[35]». إنه عصر جديد هذا الذي دشنَته الفلسفة المعاصرة (على القارئ أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يعلم بأن الفلسفة المعاصرة عند أركون، هي الفلسفة الفرنسية، وليست كل الفلسفة الفرنسية، بل بالتحديد فلسفة نَفَر مِن النيتشويين الهايدغاريين مثل دولوز وفوكو ودريدا وريكور الكارهين للتنوير والعقل والمنطق والعلوم الصحيحة)؛ قلتُ إنه عصر جديد دخلَت فيه الإنسانية حقبة » انحلال الأصول أو تفكّكها، أو.. عصر نِسبية القيم، أو ذاتية التأويلات والتفسيرات36 .«

المفهوم الكلي المجرّد، والموضوعية العلمية التي تعلو على الذوات الفردية وتُمثّل الشرط الأول لبناء خطاب علمي معقول، لا معنى لها بتاتا لأن ابستيمولوجيا أركون المبشَّر بها هي « ابستيمولوجيا رافضة لكلّ فكر أصولي أو تأصيلي». والبديل الوحيد عن المعرفة الصحيحة الثابتة هو التأويل، أو بالأحرى، معرفة الأشياء بالنسبة لأركون، تُختزَل فقط في ما أسماه «استراتيجيات تأويل». انظر كيف يهيم هاشم صالح . مُترجم أركون ومُؤوِّله ومُروّج أفكاره في جميع أنحاء العالم العربي . بهذه الإبستيمولوجيا الفذّة التي تخَلّصت من عُقدة التأصيل، حيث يُعلّق على كلمات أركون قائلا » : الإبستيمولوجيا المعاصرة أو فلسفة العلوم لم تعُد تعتقد بإمكانية تأصيل العقل أو الحقيقة بشكل نهائي. والدليل على ذلك أن الحقيقة تتغيّر، والعقل يتطوّر من عصر إلى آخر37.«

لقد دأب أركون على هذا النهج منذ زمن طويل، أعني منذ صدور كتابه " في سبيل نقد العقل الإسلامي" الذي حُرِّفَت تَرجَمة عنوانه إلى العربية بـ" تاريخية الفكر العربي الإسلامي"، وتمَسّك بنهج التشكيكية الجديدة، بل قُل السفسطائية الجديدة المحاكية لسفسطائية ميشال فوكو والتي شَهدت رواجا كبيرا في تلك الفترة، ومازالت رائجة إلى الآن في العالم العربي الفرنكوفوني، وأثنى عليها وسمّاها بـ« مَواقف العقل المعاصر وآخر كشوفاته38.«

يقول أركون في الكتاب أعلاه: « ليس هناك من حقيقة غير الحقيقة التي تخصّ الكائن الإنساني المتفرد والمتشخص والمنخرط ضمن أوضاع محسوسة قابلة للمعرفة والدرس39». ثمّ إن الحقيقة هي وليدة السلطة كما علّمنا فوكو، الذي يُردّد أركون أقواله على حرفيتها » :إن الحقيقة مُوجَّهة لكي تُعلن وتُنشر ضمن وسط اجتماعي . تاريخي يتنافس فيه أناس مختلفون من أجل اقتناص السلطة والسيطرة عليها». أمّا العلوم الصحيحة والمناهج التجريبية فإنها « لا تُعلِمنا شيئا عن كينونة الأشياء وعن كينونة الأفراد الأحياء .وهكذا تنتهي العقلانية إلى الفساد والتلف40 .«

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

على الرغم من هذا القالب المغلَق الذي أحكَم فيه الذات العارفة وختَم به على ملكات التفكير الإنساني، فإن الرجل يدّعى بأن « مَكانة العقل مُشوّشة تماما الآن41»، ثمّ يضيف بأن الفلاسفة فقط « لا يزالون مُستمرّين في النضال من أجل الحفاظ على أولوية التفكير النقدي المتمركز على نظام العقول المفترض وجودها، صراحة أو ضمنا في كلّ تركيبة معرفية42». نحن هنا دائما في مجال السفسطة وأمام تصعيد دراماتيكي للأشياء، لأن الأمر واضح وبديهي، ليس الفلاسفة فقط بل إن كلّ العلماء المختصين وحتى الناس العاديين المتَنوِّرين، لا زالوا متشبّثين بالعقل ويعتبرونه درعا واقيا ضدّ اللاعقل، وضدّ الهجمات التي تأتيه من طرف ذاك العَجِين الهُلامِي من المتدينين ومفكري اليمين في كلّ الأمصار .

ليس من الإجحاف القول بأن أركون، مثله كمثل المفكرين المتديّنين، لا يؤمن بالعقل ولا يعترف بمبادئ كلّية، لأنه مُتشبّث بالنسبيّة المطلقة، الشيء الذي أداه إلى تفتيت العقل البشري إلى هباءات لا يجمعها جامع، ولا يمكن وصلها أو إيجاد حتى قرابة نظرية ومبدئية بينها. لقد اكتشف مثلا: « أنّ مفهوم العقل نفسه له تاريخ. فالعقل الذي كان يستخدمه الحَسن البصري ليس هو العقل نفسه الذي كان يستخدمه ابن خلدون. والعقل الذي كان يستخدمه ابن خلدون ليس نفسه الذي استخدمه محمّد عبده. والعقل الذي كان يستخدمه محمد عبده ليس هو نفسه الذي استخدمه طه حسين. وعقل طه حسين ليس هو العقل الذي أستخدِمه أنا شخصيّا اليوم43». كيف يمكن لهذه العقول أن تتواصل إن كانت مختلفة فيما بينها؟ كيف يمكن ذلك إن كانت العقول متحوّلة جذريا وباستمرار إلى درجة أنه في غضون عقد أو عقدين لا يوجد أي تناسب يجمعها؟ إذا كان كلام أركون صادقا فإننا لا يمكن أن نقرأ لِمُفكِّر سبقنا بقرن من الزمن، لا بل حتى بعقد واحد، لأن عقله مختلف عن عقلنا ومجاله النظري بعيد عن مجالنا. وفعلا أركون يؤكّد هذه النسبوية السفسطائية ويردّد أطروحات الإنثربولوجيين الفرنسيين وجَمهرة الفلاسفة أتباع التيار النيتشوي: « العقل ليس شيئا مجرّدا قابعا في الهواء وإنما هو شيء محسوس ومؤطّر بشكل جيّد. العقل ليس جوهرا ثابتا يَخرُج على كلّ تاريخية وكلّ مشروطية. فللعقل تاريخيته أيضا. وكلّ واحد من هذه العقول المذكورة مرتبط بمرحلة معينة من مراحل التاريخ بكلّ معطياتها وأدواتها. إنه مرتبط بالبيئة والمجتمع والحالة التطوّرية للأنظمة الثقافية والمعرفية السائدة في زمن كلّ مفكّر. المفكّر مشروط بقدر ما هو حرّ44». ويقول أيضا » :ولهذا السبب تحدّثتُ عن تاريخية العقل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(L'historicité de la raison)، أقصد الطابع المتغيّر والمتحوّل للعقل، وبالتالي الطابع المتغيّر للعقلانية المنتجة عن طريق هذا العقل45 .«

من الواضح أن خطابات لاعقلانية من هذا القبيل لا تعمل إلاّ على تدمير حبّ الحقيقة وإشعار الناس باليأس من قدرة العقل العلمي على معرفة أيّ شيء وعلى الإطلاق في هذا العالم. ولا يَنفكّ كاتب هذه السطور من التنبيه على أن هذا الصّنف من التفكير دشنَته تيارات لاعقلانية حديثة، وروّجت له ثلّة من النيتشويّين الفرنسيّين، الذين رأوا في الموضوعية العلمية وفي المفهوم المجرّد العدوّ الذي يجب القضاء عليه. لقد قال دولوز إن الفلسفة هي « الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم46»، ذلك لأنّ » المفهوم لا يُعطَى وإنما يُبدَع ويجب إبداعه... بقدر ما يكون المفهوم مُبدَعا، فإنه يفرض نفسه. فكلّ ما يرتبط بنشاط إبداعي حرّ هو أيضا ما يفرض ذاته في ذاته بطريقة مستقلّة وضرورية47». هذه أقوال جيّدة على مستوى خطابي شعري، إلاّ أنها على مستوى علمي فهي خُلف لا معنى لها أصلا، لأنّ إطلاق العنان للذّات كي تُبدِع بحريّة ما يروق لها من المفاهيم، دون التقيّد بمعطيات موضوعية والإرتكاز على مبادئ ثابتة، قد يكون إلى الإعتباط والشعريّة أقرب منه إلى الفلسفة والعلم، بل قد يؤدي هذا النهج في التفكير إلى ذاتوية خالصة وإلى نسبية مُطلقة، وهذا فعلا ما يُنَظِّر إليه دولوز بصراحة حينما يقول: « الأوفرُ ذاتية سيغدُو الأوفر موضوعية»، أي أن المفاهيم « لن تكون أيّ شيء إن كانت لا تَحمِل توقيع مُبدعيها48.«

لكن الفكر العلمي، والفلسفة ككلّ، بُنِيت أساسا على أرضيّة مُغايرة تماما، إن لم تكن نقيضة: هناك قوانين ومبادئ تَخضع لها عملية إنتاج المعرفة متعالية عن أهواء مكتشفيها، وهناك أيضا شبكة من الرموز الموضوعية والقواعد التي تقي المفكّر، مِن أن يُطلق ذهنه « مُهملا يَسبح في أشياء غير محمودة ويروم المصير إليها من حيث اتفق49.«

نيتشويّة دولوز لا تعبؤ بمثل هذه التقييدات النظرية، بل تَمنَعُه حتى مِن التّمسّك بثوابت منطقية ومبادئ عقلية تشترك فيها البشرية جمعاء، وتسمح بإنتاج حقيقة علمية، متعالية عن الأشخاص وأوضاعهم الحياتية، وتُمكّن أيضا من التواصل بين كلّ الذوات العاقلة50 .هذا الأمر غير ممكن، لأنّ دولوز يرفض، رفضا نيتشويّا، مفهوم وِحدة الحقيقة وصلوحيتها للجميع، ذلك لأنّ الرجل يُنَظّر إلى حقيقتين متباعدتين بُعد السّماء على الأرض: حقيقة وَضِيعة للدّهماء، والسّفالة، والعبيد،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وحقيقة راقية للنّبلاء والأسياد. هذا ليس بالمزاح السّمج أو بالتّخريف الأخرَق: لِنَفتح فقط الصّفحة مائة وأربعة وثلاثين (134) من الترجمة العربية لكتابه " نيتشه والفلسفة" حتى نقرأ شيئا مذهلا حقّا: « ليست مقولات الفكر هي الحقيقي والزائف، بل النبيل والخسيس، العالي والسافل، وفقا لطبيعة القوى التي تستولِي على الفكر بحدّ ذاته. إن لدينا دائما، من الحقيقي كما من الزائف، الحصّة التي نستحقها: هناك حقائق للسفالة، حقائق هي حقائق العبد51.»

العقل هو وليد السلطة، وليست هناك حقيقة مستقلّة عن إرادة تنشؤها أو قوّة تفرضها، كما يقول فوكو، ذلك لأن: « الحقيقة ليست خارج السلطة، ولا هي دون سلطة (ليست الحقيقة جَزَاء النّفوس المفكرة الحرّة...). إن الحقيقة مِن هذا العالم، فهي ناتجة فيه بفضل إكراهات متعدّدة». ليس هناك إختلاف جوهري بين مواقف دولوز ومواقف فوكو، ومغزى أطروحتيهما واحد، ألا وهو انعدام الحقيقة الموضوعية على الإطلاق وفي أي مجال من المجالات المعرفية: وعلى هذا الأساس فإن حقيقة أن الأرض تدور حول الشمس، وأن النجوم تتكوّن من كتلة من الهيدروجين، وضوؤها ناتج عن تفاعل حراري نووي بسبب ضغط الجاذبية، وأن الماء يتكوّن من ذرتين من الهيدروجين وواحدة من الأكسيجين، وأن كتلة المادة تُحنِي مسار الضوء في مجال جاذبيتها، وأنه، من وجهة نظر أخلاقية، الرحمة أفضل من القسوة، والسلم أفضل من الحرب، كلّ هذه الحقائق لا تفيد في شيء ولا تتعالى عن الذوات، والسبب في ذلك، حسب فوكو، هو أن « لكل مجتمع نظامه للحقيقة، و"سياسته العامة" لها52». إنها النسبوية النظرية التي وصلت إلى حدّ الهوس: ليس هناك حقائق شاملة أو قيم أخلاقية ثابتة تجتمع عليها البشرية كافة، كل ما يُنتجه البشر، بما في ذلك العلوم الصحيحة (ولا أستثنيها لأن الرّجل عَمَّم ولم يُخصّص)، هي في نظر فوكو أمور مرتبطة بالسلطة وبالعصر الذي وُلدت فيه، ولذلك فهي مُتزمنة ولا يمكن أن ترقى إلى اليقين التام، لأن اليقين لا وجود له في هذا العالم. العزاء الوحيد الذي يُتيحه فوكو (وكذلك أركون، عن مضض) هو وجود استراتيجيات للحقيقة، وهذا الموقف العدمي ينعكس على دور المثقف الذي كان في وقت ما حاملا لهموم كونية ويُنَظّر، لا لجزء محدود من البشرية بل، للإنسانية جمعاء، وذلك اعتقادا منه بأنهم يشتركون معه في المفهوم الكلي للإنسان ويتقاسمون مثله نفس المصير؛ هذا الأمر غير ممكن عند فوكو، فالمثقف الجديد، في رأيه، كفّ عن أن يكون « حاملا لقيم كونية، بل هو يَحتَلّ موقعا خاصا...وخصوصيّته مُرتبطة بالوضائف العامة لجهاز الحقيقة في مجتمع كمجتمعنا [الغربي]53». إنها ترجمة على أرض الواقع النظري لفكرة تاريخيّة الدازاين عند هايدغر، أعني تَموقع

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الإنسان في عالمه وتراثه الخصوصي، وهي فكرة ترفع تماما المفهوم الكلي للإنسان، وتُجذّر الخصوصية التي تكتفي بالعالم الغربي على الأكثر، ولكنها، بالنسبة لهايدغر، تَقِف فقط عند حدود ألمانيا. فوكو استوعب الدرس الهايدغاري، واكتفى بإخراج كلامه الشوفيني من الدائرة الضيّقة للشعب الألماني، ثم سَحَبه على الغرب فقط دون أن يتعدى حُدوده ويَشمل سِواه من الأمم الأخرى. المثقف، إذن: « يعمل حينئذ أو يناضل على المستوى العام لنظام الحقيقة الذي غدا شديد الأهمية بالنسبة لِبُنيَات مجتمعاتنا نحن [في الغرب] وسَيرِ أمورها54.»

يجب حمل كلام فوكو على محمل الجدّ، وأرى أن المثقفين العرب الذين ما زالوا يستخدمون مقولاته ومُولعين بفلسفته، عليهم أن يَعوا بأغراضه المبيَّتة بل والصريحة في بعض الأحيان؛ لقد قال في "الكلمات والأشياء" بأن عِلم الإثنولوجيا يتجذّرُ « في إمكانيةٍ تُميّزُ حَصرا تاريخ ثقافتنا [الغربية]55»: وكأنّ هَمّ الحقيقة هو خصوصية ملازمة للعالم الغربي فقط؛ وكأن الشعوب الأخرى ليست لديها هموم تجاه الحقيقة أو السلطة، ولا تستطيع التمييز بين ما يتعالى عنها وبين مَن يُنتجها أو يكرّسها على أرض الواقع. على كلّ حال، ما يَهُمُّنا، في هذا الصدد، هو أن الحقيقة لا وجود لها، وليس هناك معيار يسمح لنا بتمييز الصواب من الخطأ، والأخلاقي من اللاأخلاقي، و الواقعي من الوهمي، ذلك لأن « الحقيقة مُرتبطة بأنظمة السّلطة التي تولّدها وتساندها، [...وهي أيضا] مرتبطة بمفعولات السلطة التي تتمخّض عنها وتَسُوسُها». إنها حتمية لا مَفرّ منها، حتميةُ سُلطةٍ لا يمكن تفاديها أو التخلّص منها بأي وسيلة من الوسائل، المهمّة الأساسية للفيلسوف الجديد لا تَكمُن إذن في « تخليص الحقيقة من كلّ منظومة سلطة، إذ أن ذلك عين الوهم ما دامت الحقيقة ذاتها سلطة . وإنما بإبعاد سلطة الحقيقة عن أشكال الهيمنة (الإجتماعية والإقتصادية والثقافية) التي تعمل في حضنها لحدّ الآن56». لا نعجب إذن، وعلى أساس هذه العدمية النظرية، أن يحطّ فوكو من شأن العقل وانجازاته النظرية والعملية، وأن يتّهم العقلانية باقتراف جرائم بَشعة في حق الإنسانية، مثل المعتقلات النازية والمِحرَقة: « إنّ العلاقة بديهية بين العقلنة وتجاوزات السلطة السياسية. وما كان علينا أن ننتظر البيروقراطية أو معسكرات الإعتقال حتى نعترف بوجود هذا النوع من العلاقة57». هذه بداهة عند فوكو، ونوعا ما، عند أركون أيضا، ولكنها بداهة غير مبرهن عليها وبالتالي فهي ليست مُلزِمة لأحد، بل إن أقوالا مِن هذا القبيل تُنكّل بالفلسفة أشدّ التّنكيل، لأنها تُقوّض من الأساس استقلالية المعرفة النظرية وشمولية العلم، وتُثني الناس عن حبّ الحقيقة، بل تنزع عنهم أيّ فضول نظري. لِمَ البحث عن الحقيقة في ذاتها؟ ولما الداعي للإلتزام

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

بِجُهد المفهوم إن كنّا في النهاية لُعبة في يَد سلطة عليا، أو تحت إرادة قاهرة تَفرِض علينا تحرُّكاتنا، وأساليب تفكيرنا ونَظرتنا للعالم؟ ليست هناك وقائع يجب سبرها والبحث عن عِلاّتها، بل هناك فقط تأويلات لامتناهية، وغرض الفيلسوف في عِلمه هو الإستمرار في تأويل تلك التأويلات إلى غير نهاية. هذه عدمية نظرية خالصة لا أكثر ولا أقلّ، تتضارب مع أبسط مقومات الفعالية النظرية، وتعمل على الحطّ من قُدرة العقل التنويري، بل وإدانته بالكامل.

مِن حسن الحظ أن موضوعنا ليس فوكو، ولكننا أُرغِمنا الدخول في مثل هذا النقاش لأن أثَر منهجية فوكو وأفكاره تسرّبت بكلّ حدّتها إلى أركون، وهيكلت في العمق نظرته للأشياء، مُشرّطة تماما مقاربته التاريخية للتراث الإسلامي، والنتيجة هي كما نراه: عداء للعلم ونفور من العقل التنويري، وسفسطة واضحة58 .

أقول: على عكس العدمية النظرية التي يروّج إليها هؤلاء الفلاسفة، هناك حقائق علمية، وهناك قوانين شاملة وعقل إنساني يُنظّم ويُقنّن، لأن الواقع ذاته قابل للتنظيم والتقنين، العالم ليس هو شواش مادي يمكِن فيه لأيّ شيء اتفق أن يفعل ما اتفق، بل هناك قانون عدم التناقض الذي يَضمنُ معقولية الأشياء وثباتها ويجعل مِن العقل أمرا ضروريا في هذا الكون. لقد تفطّن الفيلسوف العربي ابن رشد إلى العدمية النظرية الكامنة وراء توجهات فكرية إيديولوجية مماثلة تقريبا للعدمية التي يُروّج لها بعض الفلاسفة المحدثين ذوي المنحى النيتشوي الهايدغاري قائلا: « الموجودات تنقسم إلى مُتقابلات وإلى مُتناسبات، فلو جاز أن تفترِق المتناسبات لجاز أن تَجتمع المتقابلات. [لكن المتناسبات لا تفترق وبالتالي فالمتقابلات لا تجتمع]. وبإدراك هذه الحكمة كان العقل عقلا في الإنسان... ولذلك فالعقل ليس بجائز فيمكن أن يُخلق على صفات مختلفة، كما تَوهَّم ذلك ابن حزم59 .»

لكن هذه التنبيهات المتأتية من تراثنا الفلسفي العقلاني لا تستثير حس أركون النقدي، فالرجل متشبّث بموقعه هذا، ومَن اطّلع على كُتبه فإنه سيحدس بمفرده أنه واصل في تجذيره وترسيخ معالمه، وإطاره المرجعي لم يتغيّر طرفة عين بمرور عقود من الزمن، أعني أركيولوجيا فوكو، تفكيكية دريدا، تأويلية ريكور وتاريخ مجموعة الحوليات. لقد تماهى مع أفكار هؤلاء الفلاسفة إلى حدّ أنه تبناها كشيء بديهي، واعتبرها من عنديّاته » :لكي أبيّن بشكل واضح الفروق التي تميّز بين التاريخ التقليدي للفكر وبين الفكر الجديد الذي أريد أن أفتتحه وأمهّد له الطريق فسوف أذكّر ببعض

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

خصائص الأوّل وصفاته .كان تاريخ الأفكار قد فرض نفسه في مجال التعليم والبحث لفترة طويلة بصفته علما متميّزا ومختلفا عن الفروع والإختصاصات الأخرى لعلم التاريخ. إنه يستند على الفرضيّة التي تقول بأن الأفكار ذات قوام متماسك وثابت، وإنها ذات دلالات ومعان فوق انسانية. كما ويبرزها بمثابة كائنات عقلية مستقلّة عن الإكراهات اللغوية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية60.»

إن الفكر الجديد الذي يبغي افتتاحه أركون قاده، إلى تبنّي الأطروحة النقيض، أي أن الأفكار وليدة الشروط اللغوية والقوى المتصارعة ومختلف السلطات الإجتماعية، وبالتالي لا يمكن إنتاج أية حقيقة، الكلّ تابع للغة والإقتصاد والسياسة ومشروط بالظروف المادّية. لقد ذهب الرجل أبعد حتى من غلاة الماركسيّة الذين يربطون ميكانيكيا بين انتاجات الروح والظروف المادية .

مَن المسؤول الأول عن هذا الزيغ وعن كلّ تلك الأخطاء الجسيمة التي عدّدها أركون) الإعتقاد في ثبوت الأفكار وتماسكها، في حيازتها على دلالات ومعان متعالية عن الإكراهات اللغوية...)؟ بدون تَردّد أو تريّث، وعلى شكل حكم قيمي، نعلم جدّا مصدره النيتشوي الهايدغاري، يقول أركون: « نلاحظ أن تصوّرا كهذا لتاريخ الأفكار مرتبط كثيرا بالفلسفة الجوهرانية والماهياتية للأنظمة التيولوجية والميتافيزيك [هكذا، sic] الكلاسيكي الذي نما وترعرع في أحضان الوحي من توراة وأناجيل وقرآن، وفي أحضان الفلسفة الإفلاطونية [....] كانت التيولوجيا والفلسفات التي انتشرت أثناء العصور الوسطى في كلّ الفضاء الجغرافي الإغريقي ـ السامي قد قوّت إلى حدّ كبير هذا التصوّر الذي يقدّم الأفكار على أنها كائنات منفصلة ومتفرّقة تستمرّ فقط بقوّة الذهن =)العقل)، مؤسّسة على الأنطولوجيا المتعالية ومؤسّسة لها61.»

إنه خليط جمّ من التيّارات الفكرية ومن علوم مختلفة، وتعاليم تمتدّ من التوراة مرورا بالفلسفة اليونانية، بالأخصّ منها الأفلاطونية، والميتافيزيقا ولاهوت الأديان التوحيدية، وُصُولا إلى الفلسفة الجوهرانية والماهياتية الحديثة. هذه هي عادة أركون: إنه يَضَع كل الأشياء، الغثّ والسّمين منها، في نفس السلّة، دون أن يُفسّر أو يبرهن، ثمّ يُعمّم الأحكام متجاهلا ذِكر الفوارق وتَمييز أصناف التّعَاليم، وتحديد أطرها المرجعية بدقّة .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

يجب الدخول في التفاصيل، يَجب اعطاء الأمثلة وإيضاح المسائل العويصة وتبرير الأحكام والبرهنة عليها ثمّ دحض اعتراضات الخصم. لكن لا شيء من هذا القبيل يمكن العثور عليه عند أركون، فهو لا يبرهن عقلانيا بل يحكي ويقصّ ثم يَشتم ويُدين .

إذا أردنا الدقّة، فإن الوحي لا علاقة له بالميتافيزيقا، أمّا الفلسفة الجوهرانية الماهياتية، أي الفلسفة الأفلاطونية، فلا علاقة لها مباشرة بالأنظمة التيولوجيّة وبِكُتُبِها، من توراة وإنجيل وقرآن.

ينبغي علينا أن نَكُون صريحين وقاطعين هنا: الفرضيّة التي تقول بأن الأفكار الكلية المجرّدة، أو المثل، هي كيانات ذات قِوام ثابت وأنها تحمِل دلالات ومَعانٍ خالدة، مهما كان التاريخ والسيرورة الكونيةّ، ليست من باب الدين ولا تَدخل في مشمولات الكتب المقدّسة أو تعاليمها اللاهوتية. بل إن الأطروحة المركزية التي نجد بذورها، أو تلميحاتها في تلك الكتب هي ألاّ شيء ثابت ولا توجد هناك قوانين تخضع لها صيرورة الكون، بل الكلّ مُعلّق بإرادة الله ومشيئته. والكائنات ليست لها خاصيات جوهرية مستقرّة، ولا شيء يملك في ذاته محمولا خاصا أو طبيعية لازمة تَجعله ضرورة يفعل أو يُنتج هذا المفعول دون آخر. والإعتباطية تكتسح حتى الجانب الأخلاقي، لأنه بالنسبة للفكر الديني ليست هناك قيم متعالية ومستقلّة عن إرادة الله، ولا يُمكن حتى للعقل أن يُحسّن شيئا أو يُقبّحه، بل الكلّ مُسيَّر بيد الإرادة الإلهية ويمكن للفضيلة أن تنقلب رذيلة والعكس بالعكس. يقول الشريف الجرجاني في شرحه على "المواقف" للإيجي » :القبيح ما نُهيَ عنه شرعا والحُسن بخلافه، ولا حُكم للعقل في حُسن الأشياء وقبحها62»، وبالتالي فإن العمل القبيح ليس « عائدا إلى أمر حقيقي في الفعل يَكشِف عنه الشرع، بل الشرع هو المثبت له والمبيّن. ولو عَكَس [الشرع] القضية، فحَسَّن ما قبَّحَه وقبَّح ما حسَّنه، لم يكن ذلك مُمتنعاً63». إذن لا شيء ثابت في ذاته، ولا يُمكن للإنسان أن يعرف جوهر الخير والشرّ إن لم يُوقفه الشرع، وهذا في نهاية المطاف ما أخلص إليه اللاهوتيّون المسيحيون. لقد قال أوغسطينوس بأن الله يُعذب الولدان في نار جهنّم ولا يُعدّ ذلك شرّا في ذاته، وعلى نفس هذه الوتيرة يُؤكد اللاهوتي أبيلار(Abelard) ، أن هذا العقاب لو صدر من طرف قاضٍ إنساني، يُعدّ ظلما » لكن لا يمكن أن نُسمِّيَ شرّا ما هو مفعول إرادة الإله العادلة. لأننا لا نستطيع أن نميّز الخير مِن الشرّ، إلاّ لأن الخير هو ما وافق الإرادة واستجاب إلى رغبة الله .ولذلك فإن بعض الأعمال، تبدو في ذاتها قبيحة جدّا، وبالتالي مُحرّمة، لكن يُمكن تُنجَز بأمر من الله64». النتيجة هي أنّ « كلّ تفريق بين الخير والشر يجب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

إحالته إلى إرادة العناية الإلهية... لا شيء إذن يمكن أن نحكم عليه بأنه خير أو شرّ، إلاّ ما كان مطابقا أو منافيا لهذه الإرادة الكاملة65». وطبقا لهذه المبادئ فالحصيلة النهائية محبطة جدّا ولكنها ضرورية: وهي أنه حتى إن لم نُدرك معنى تعذيب الولدان الغير مُعمَّدين، يجب الإعتراف بأن هذا التعذيب عادل66.

لكن، احقاقا للحق، يجب القول بأن فكرة الإعتباطية الإلهية لم تكن هي السائدة بين مفكري العالم الإسلامي والمسيحي لأن المعتزلة قالوا بأن الحاكم هو العقل « والفعل حَسَن أو قبيح في نفسه. والشرع كاشف ومُبيّن. وليس له أن يعكس القضيّة67». ولكن أكثر مَن حدس مخاطر هذه المواقف الإعتباطية على الفكر النظري هو الفيلسوف ابن رشد، لأن العلم اليقيني يتلاشى، إن تساوت الإمكانات واجتمعت الأضداد، (الحقيقة والخطأ، الخير والشرّ) أو عُلّقت بإرادة هي التي تقرّر المعنى دون قانون يضبطها: « أما إذا سَلّم المتكلمون أن الأمور المتقابلة في الموجودات ممكنة على السواء وأنها كذلك عند الفاعل وإنما يختصّ أحد المتقابلين بإرادة فاعل ليس لإرادته ضابط يجري عليه، لا دائما، ولا في الأكثر، فكل ما يلزم المتكلمين من الشناعات يلزمهم. وذلك أن العلم اليقيني هو معرفة الشيء على ما هو عليه، فإذا لم يكن في الوجود إلاّ إمكان المتقابلين في حق القابل والفاعل فليس ههنا علم ثابت بشيء أصلا، ولا طرفة عين .»

إنها نسبوية لاهوتية تشبه إلى حدّ كبير نسبوية بروتاغوراس الأنثربولوجية (الإنسان مقياس كلّ الأشياء)، وقد تؤدي أصلا إلى نوع من العدمية الشاملة التي تجعل من الأشياء أمورا جائزة وفاقدة لأية قيمة نظرية تُذكَر: ابن رشد عارض هذا الرأي لأنه يعتقد في وجود مبادئ ثابتة وغير خاضعة للجواز ولا يمكن حتى للإرادة الإلهية أن تغيّر من طبيعتها: « وأمّا أن الأمور ليست كلّها ممكنة فظاهر جدّا: فإنه ليس يمكن أن يكون الفاسد أزليّا ولا يمكن أن يكون الأزلي فاسدا كما أنه ليس يمكن في المثلّث أن تعود زواياه مساوية لأربع قوائم ولا في الألوان أن تعود مسموعات، والقول بهذا ضارّ في العلوم الإنسانية جدّا68.»

ليست نظرية الجواز العامّ ضارّة في العلوم فقط، بل إنها تنسف مبادئ الأخلاق وتكرّس الإعتباط والنسبوية السفسطائية وتجعل كلّ فعل جائز، ويغيب أيّ معيار للتمييز بين الخير والشرّ: « وذلك أنه [حسب رأي الأشاعرة] ليس ههنا شيء هو خير بذاته بل بالوضع ولا شيء هو شرّ بذاته، ويمكن أن ينقلب الخير شرّا والشرّ خيرا فلا يكون ههنا حقيقة أصلا، حتى يكون تعظيم الأوّل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وعبادته إنما هو خير بالوضع. وقد كان يمكن أن يكون الخير في ترك عبادته والإعراض عن اعتقاد تعظيمه، وهذه كلّها آراء شبيهة بآراء بروتاغوراس 69.»

إن وقُوف أركون ضدّ أي نوع من التأصيل يبدو، للوهلة الأولى، أنّ له مبرراته الموضوعية، فالرجل يريد أن يسدّ الباب أمام الفكر الأصولي الذي يدّعي إرساء معتقداته على أسس ثابتة وبالتالي البرهنة على صحتها المطلقة، ومن ثَم اقصاء المعتقدات الأخرى. إلاّ أن النسبوية التي يدعو إليها أركون ويحاول " تأصيلها" تَخدم أوّلا وبالذات الأصوليين: لأن القول بأن المعرفة الإنسانية لا تُدرك جوهر الأشياء، والزعم بأن الحقيقة ليست إلاّ مجموعة من التأويلات الذاتية، يجعل مِن نسق العلوم العقلانية ونظام المعتقدات الدينية الأسطورية أمرين مُتكافئين: وبالتالي فإنه لا مُفاضلة بين الموقف الإيماني، من جهة، والموقف العقلاني النقدي، من جهة أخرى، بل إنه متعذّر علينا حتى التجرؤ على دحض الخرافات والأساطير، لأن إنتاج المعاني متساوٍ بين جميع التعابير الثقافية. وهو الذي اعترف بهذه النتيجة حينما قال: « لا أريد هنا تأكيد تَفوّق أحدهما على الآخر، وإنما أريد فقط التنبيه إلى الفروق التي تميز بينهما70 .»

أركون يشدّد كثيراعلى هذه النقطة، لأن مُهمّة الباحث، في رأيه، لا تكمُن في الكشف عن الحقائق واستنباط المجهول من المعلوم، بل « تكمُن في أشكلة كلّ الأنظمة الفكرية التي تُنتِج المعنى، وكلّ الصّيغ التي اختفت أو لا تزال حيّة والتي تُنتج بدون تمييز المعنى وآثار المعنى. هنا يكمن التفريق الأساسي بين الباحث التقليدي والباحث الحديث71». إستحالة التأصيل، وما تحمله من عدم القدرة على نيل الحقيقة يُدعّمه عقل كبيرهم72، أعني عقل بول ريكور، أو ما أسماه أركون بالعقل المنبثق حديثا، الذي » يعتمد على نظرية التنازع بين التأويلات (Le conflit des interprétation)بدلا من الدفاع عن طريقة واحدة في التأويل والإستمرار فيها مع رفض الإعتراضات عليها حتى ولو كانت وجيهة ومفيدة73». وعلى هذا الأساس فهو يستخلص النتيجة السلبية التالية: لا يمكن لنا أن نُفاضل أو نَختار بين «عقلانية ابن رشد ضدّ الغزالي أو ابن سينا أو العكس74.»

الهوامش:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

1محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم؟، دار الطليعة، بيروت، ط. 3، 2004، ص، 48 ـ 49.

2محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مركز الإنماء القومي، بيروت 1998، ص، 11 .

3محمد أركون، نفس المصدر (ن. م)، نفس الصفحة (ن. ص .(

4محمد أركون، ن. م، ن. ص .

5محمد أركون، ن. م، ص، 13) .التشديد من عندي.(

6بخصوص العدمية النظرية التي استفحلت في الأوساط العلمية الغربية، أستسمح القارئ بإحالته إلى كتابي: نيتشه، هايدغر، فوكو. تفكيك ونقد، دار المعرفة، تونس 2004.

7يقول أركون بخصوص هذه النقطة: «إن إعادة الإعتبار للفكر الأسطوري، في الغرب، تمثل ردّ فعل على مرحلة الإنتصار المتطرّف للعقل التكنيكي، المركزي ـ المنطقي، والوضعي (في القرن التاسع عشر وحتى منتصف هذا القرن). هكذا يبدو أن زمننا الراهن يمتاز بأنه يعترف، وللمرّة الأولى، بالأسطورة كأسطورة، وإدخالها مع كل قيمها الإيجابية (الواقعية) ضمن إطار معرفة تعدّدية. يسمح لنا هذا الوضع المعرفي الجديد، أن نفهم كيفية اشتغال الفكر الديني، دون أن نظطرّ إلى معاكسته بالرفض الإعتباطي للعقل المنطقي ـ المركزي». محمد أركون، الفكر الإسلامي. قراءة علمية، المركز الثقافي العربي ـ مركز الإنماء القومي، الدار البيضاء ـ بيروت، ط. 2، 1996، ص، 126.

8محمد أركون، القرآن. من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني. دار الطليعة ـ بيروت، 2001. ص، 5.

9ن. م، ص، ن.

10محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م. س، ص، 24 ـ 25.

11محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، ص، 238.

12محمد أركون، ن. م، ن. ص.

13محمد أركون، القرآن. من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني م. س، ص، 6 .

14ن. م، ن. ص.

15ن. م، ن .ص.

16أرى أن كلام أركون هذا يناقض ما قاله في موضع آخر، أعني بالتحديد في كتاب" قضايا في

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

نقد العقل الديني"، حيث ذهب إلى أن «العقل لم يكذّب وعوده في تبيان مقدرته على حلّ مشاكل الناس وبناء حضارة رائعة في هذه الأرض. ولو أنه خلف بوعده لانصرف الناس عنه». محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، ص، 320. ولكنه في نفس ذاك الكتاب، يُعيد الكرة ويتهجّم على عقل التنوير، ملقيا عليه نفس التهم التي ألقيت عليه من قبل اللاعقلانيين الغربيين، ومناهضي التنوير من ميشيل فوكو وأمثاله » :ذلك أن العقل قد نسي جذوره الأولى ومعاركه التحررية الأصلية، وتحوّل إلى عقل مهيمن ومسيطر وبارد. لقد فقد طزاجته الأولية وبراءته الأصلية ككلّ العقائد التي تترسّخ وتنتصر. وهكذا يَرفع شعار العلمانية ويَستغيث بفولتير كلما لمح شبح الأصولية الإسلامية!». م. ن، ص، 264.

17محمد أركون، القرآن. من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني م. س، ص، 6 .

18ن. م، ن. ص.

19ن. م، ن. ص.

20 M. TERKESSIDIS, Kulturkampf. Volk, Nation, der Westen und die Neue Rechten, Kiepenheur & Witsch, Köln 1995 (trad., it., Tempi di reazione.a cura di F. Giorgi. Est, Milano 1999, pp. 38-39)

21كلود ليفي شتراوس، العرق والتاريخ، ترج سليم حدّاد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1997، ص، 6 » .الخطيئة الأصلية للأنتروبولوجيا تكمن في الخلط بين الفكرة المحض بيولوجية للعرق) وذلك مع الإفتراض، أن هذه الفكرة يمكنها، حتى على هذه الأرضية المحدودة، إدعاء الموضوعية، الأمر الذي يخالفه علم الوراثة الحديث)، والنتاج الإجتماعي والنفساني للثقافات الإنسانية.«

22كلود ليفي شتراوس، ن. م، ص، 7.

23C. LÉVI-STRAUSS, Razza e cultura, in Lo sguardo da lontano, Torino 1984, p. 18. cit, in, TERKESSIDIS, ibidem.

24كلود ليفي شتراوس، العرق والتاريخ، م. س، ص، 33.

25ن. م، ص، 16.

26ن. م، ن. ص.

27ن. م، ص، 61.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

28C. LÉVI-STRAUSS, ibid, p. 29. cit, in M. TERKESSIDIS, ibid, p. 40.

29محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، دار الساقي، 2002. ص، 9.

30محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، ص، 315.

» 31ثم جاءت الحداثة وألحّت على تاريخية الحقيقة. وعلى الرغم من ذلك فإن الميتافيزيقا الكلاسيكية تشبّثت بمفهوم الحقيقة المطلقة المتعالية حتى بعد ظهور فلسفة التفكيك للمعنى والإشتباه بالنظريات العقلانية المتمركزة على اللوغوس أكثر منها على الميتوس (القصص) ولم يبتدئ العلماء بالتحدّث عن نهاية اليقينيات وتعددية أنظمة الحقيقة، على غرار تعدّد الأنظمة السياسية، إلاّ بعد الخمسينات والستينات من القرن العشرين (انظر أبحاث العالم البلجيكي إيليا بريغوجين)». محمد أركون، القرآن. من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، م .س، ص، 10.

32محمد أركون، الفكر الأصولي، ن. م، ص، 9.

33من ينفي صفة جوهرية أو مبدأ أوليا من جهة فهو يثبته من جهة أخرى، هذا هو الخلف المنطقي الذي وقع فيه السفسطائيون الذين يبغون دحض مبدأ عدم التناقض: يكفي أنهم يتفوّهون بجملة مفيدة، تعني شيئا ما بالنسبة إليهم وللآخرين فإنهم يثبتون شيئا ما وبالتالي يعترفون بمدإ ما.

34أرسطو، الميتافيزيقا، 1006أ 12 وما بعدها.

35محمد أركون، الفكر الأصولي، م. س، ص، 176.

36ن. م، ص، 177.

37ن. م، ن، ص.

38محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م. س، ص، 37.

39ن. م، ن. ص.

40ن. م، ص،.39

41محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، م. س، ص، 17.

42ن. م، ن. ص.

43محمد أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، م. س، ص، 241.

44ن. م، ن. ص.

45ن. م، ص، 242.

46ج. دولوز و ف. غتاري، ما هي الفلسفة، ترجمة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي . المركز

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، 1997، ص، 30 .

47ج. دولوز و ف. غتاري، ما هي الفلسفة، م. س، ص، 35 ـ 36 .

48دولوز ـ غتاري، ن. م، ص، 30.

49هذه قولة لأبي نصر الفارابي، إحصاء العلوم، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1996، ص، 29.

50دولوز يؤيد فكرة ذاتوية المفاهيم بأقوال نيتشه» ذلك لأنه حسب حِكَم نيتشه، لن تعرفوا أي شيء بواسطة المفاهيم إن لم تكونوا قد ابتدعتموها أوّلا». ن. م، ص، 32.

51ج. دولوز، نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993، ص، 134 .

52 M. FOUCAULT, Entretien avec M. Fontana, in Dits et écrits II, Gallimard, Paris 2001, p. 158.

53 M. FOUCAULT, Ibid, p. 159.

54 Ibidem. (التشديد من عندي)

55ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، ترجمة جماعية، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص، 306. (التشديد من عندي.)

56 M. FOUCAULT, Dits et écrits II , ibid, p. 160.

57أ. ريفوس و ب. رابينوف، ميشيل فوكو. مسيرة فلسفية، مركز الإنماء القومي، د. ت. بيروت، ص، 188.

58بخصوص علاقة أركون بفكر ميشيل فوكو انظر: الزواوي بغورة، ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 2001. ص، 66 ـ 87. مع كلّ التحفظات اللازمة، لأن هذا الكاتب يكاد يخلو من الروح النقدية .

59أبو الوليد بن رشد، تهافت التهافت، دار المشرق، بيروت 1987، طبعة2 ، ص، 542. وقد سبق لإبن رشد أن عرض آراء المتكلمين بخصوص هذه النقطة، قائلا: « وقد ذهب بعض الإسلاميين إلى أن الله تعالى يوصَف بالقدرة على اجتماع المتقابِلين .وشِبهتهم أن قضاء العقل مِنّا بامتناع ذلك إنما هو شيء طُبِع عليه العقل، فلو طُبع طبعا يقضي بإمكان ذلك لما أنكر ذلك ولجَوَّزَه. وهؤلاء يلزمهم ألاّ يكون للعقل طبيعة مُحصّلة، ولا للموجودات، ولا يكون الصدق الموجود فيه تابعا لوجود الموجودات .فأما المتكلمون فاستحيوا من هذا القول، ولو رَكِبوه لكان أحفظ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لوضعهم مِن الإبطالات الواردة عليهم في هذا الباب من خصومهم، لأنهم يطلبون بالفرق بين ما أثبتوه من هذا الجنس وبين ما نفوه، فيعسر عليهم، بل لا يجدون إلاّ أقاويل مُموَّهة، ولذلك نجد مَن حذقَ في صناعة الكلام قد لجأ أن يُنكر الضرورة التي بين الشرط والمشروط وبين الشيء وحدّه، وبين الشيء وعلّته، وبين الشيء ودليله، وهذا كلّه تبحّر في رأي السفسطائيين». م. ن، ص، 541 ـ 542 .

60محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م. س، ص، 12. (التشديد من عندي.(

61م، س، ص، ن.

62الشريف الجرجاني، شرح المواقف للإيجي، دار الجيل، بيروت 1997، ج. 3، ص، 261 .

63الشريف الجرجاني، ن. م، ص، 262.

64 A. MICHEL, art, Volontarisme, in Dictionnaire de théologie catholique,. Librairie Letouzey et Ané, Paris 1950. T. XV, 2 partie, col. 3310.

65 Ibidem.

66 In epist. ad Rom., 1. II, c. v, P. L., t. CLXXVIII, col. 869. cit, in A. MICHEL, art, Volontarisme, in Dictionnaire de théologie catholique, op., cit, col. 3310.

67الشريف الجرجاني، شرح المواقف للإيجي، م. س، ص، 262.

68ابن رشد، رسالة ما بعد الطبيعة، تحقيق رفيق العجم وجيرار جهامي، دار الفكر اللبناني، بيروت 1994. ص، 172 ـ 173. (التشديد من عندي (

69ابن رشد، ن. م، ص، 173.

70محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ص، 40.

71ن. م، ص، 22.

72هكذا يصفه محمد أركون قائلا بأن بول ريكور هو » :أحد كبار فلاسفة فرنسا حاليا، إن لم يكن كبيرهم». محمد أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، م. س، ص، 250. (التشديد من عندي.(

73محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، م. س، ص، 14.

74محمد أركون، ن. م، ن، ص.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

محمد المزوغي

العقل في التاريخ.. منابع إسلاميات محمد أركون (2)

05 March 2008 10:55 am

لقد قلنا سابقا بأن أركون استمدّ كل أطروحاته ومناهجه وحتى مصطلحاته من المفكرين الفرنسيين واستثمرها في تأويله للتراث الإسلامي، وهذه الإقتباسات المنهجية ليست نقصا في حد ذاتها، ولا ضير فيها إن كانت تلك الأطر الفكرية ناجعة ومؤدية إلى استخلاص نتائج علمية جديدة. لكن أركون يُنكر بشدّة أن يكون قد تأثر بالتيارات الفكرية الغربية، ويحمل على من يزعم ذلك، واصفا إياه بالسطحية. الرجل واع بآراء منتقديه واعتراضاتهم، ويقول: « ربّما ظنّ بعضهم أني تَبنّيتُ هذا الموقف المعرفي والمناهج التابعة له تأثّرا بالتيارات العلمية المتتابعة السائدة في الجامعات الغربية وبخاصة باريس. وربما استنتجوا أني أفرض على الإسلام والفكر الإسلامي ما لا ينطبق عليهما مِن اشكاليات ومنهجيات ومصطلحات وتأويلات خاصة بالفكر الغربي أو الأوروبي. كثيرا ما سمعتُ هذا الإعتراض. وكثيرا ما رأيتُ هذا "النقد" يَتردد في تقديمات سريعة وسطحية لكتبي. وهذا دليل على أن أصحابه لم يقرأوا بإمعان ما كتبتُ .وإذا قرؤوا فإنهم لم يدركوا أو لم ينتبهوا إلى ما بيّنتُ وشرحتُ في مقالاتي المخصصة لما أسميته بالإسلاميات التطبيقية أو المطبّقة (Islamologie appliquée)1».

مِن السهل تَفنيد مزاعم أركون جُملة وتفصيلا، وأظنّ أنني بَرهنتُ على أنهم لم يُخطؤوا بتاتا أولئك الذين أخلصوا ـ مثل كاتب هذه السطور ـ إلى أن أركون لم يَخرج مِن حقل مناهج الفكر الفرنسي، ومِن أطُر فلسفته النيتشوية الهايدغارية. نحن لا ننقده لأنه فَرض على الإسلام مناهج خاصة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بالفكر الغربي، هذه شوفينية بعيدة عن عقل المفكر التنويري، نحن نسائله عن نجاعة تلك المناهج، ونأخذ عليه نكرانه للبداهة وعدم الاعتراف بمصادره. وفقط كلمة "الإسلاميات التطبيقية"، التي قال أركون بأنها تُمثّل عِلمه الذي دشّنه منذ بضع سنوات2، هي استنساخ لعنوان كتاب روجي باستيد،" الأنثربولوجيا التطبيقية". وكلّ ما ورد في تحاليله بخصوص الإسلاميات الجديدة، الخارجة عن معايير الإستشراق الإستعماري، نجد بذورها في مشروع باستيد. أما نقد الميتافيزيقا الكلاسيكية فإن مَرجعه الأوحد، الذي يحيل إليه القارئ، هو" الغراماتولوجيا" لدريدا3؛ المِخيال والتخيّل والعجيب المدهش هي مصطلحات استمدها ممّن وصفها بـ« الأعمال المبدعة للمؤرِّخَيْن الفرنسيين عن القرون الوسطى: جاك لوغوف (Le Goff) وجورج دوبي«4(Duby) ؛ أما شِبه العلم المسمَّى " علم النفس التاريخي" والذي حاول تطبيق مقولاته على التاريخ الإسلامي، فقد استمدّه من المؤرخ الفرنسي لوسيان فيفر؛ الفيلسوف الروحاني هنري كوربان يُمثل مرجعه الأساسي في ما يخصّ الفلسفة الإشراقيّة؛ العلاقة بين إنتاج المعنى والقوّة، استوحاها مِن جورج باللانديه وبالتحديد من خلال كتابه(Sens et puissance) ؛ وبخصوص الروابط التي تجمع بين العنف والتقديس، مرجعه المفضّل هو كتاب رينيه جيرار (La violence et le sacré)5؛ ولمعرفة تاريخ الصراع بين الأسطورة والعقل عند اليونان يُحيل إلى أعمال المؤرخ الفرنسي ج. ب. فرنان .6(Vernant) أما إميل بولا الذي يصفه بأنه « أحد كبار عُلماء الإجتماع الديني في فرنسا»، وبَالغ في الثّناء عليه إلى حدّ القول بإنه « لا يُمكن فهم كيفية انبثاق الحداثة ومخاضها العسير إلاّ بعد الإطلاع على مؤلفات إميل بولا7». ثمّ ظهر أخيرا « مفكّر فرنسي هو مارسيل غوشيه ونشّط من جديد مصطلح فيبر الشهير "خيبة العالم"8.«

أما فوكو فهو سيّد الموقف في كلّ إنتاجات أركون، وحضوره يربو على كلّ المفكرين الفرنسيين الذين تأثر بهم وانساق وراءهم9. لقد استوعب درس فوكو، (الذي تبنّى هو بدوره أطروحات جمعية الحوليات)، في ازدراء التاريخ الوقائعي العلمي: « كان ميشيل فوكو قد بيّن أن الموضوعاتية التاريخية ـ المتعالية التي سيطرت على الفكر الأوروبي لفترة طويلة قد ساهمت في اعطاء صورة خاطئة أو ناقصة عن التحقيب الإبستيمولوجي لهذا الفكر10». ثم فوكو نفسه هو الذي أنجده كي يتخلّص من أسر « العقلية الإستشراقية الكلاسيكية (أو الإبستمولوجيا الإستشراقية التقليدية)» وذلك بتصفية ما أسماه أركون « ذلك الإرث الثقيل الذي يضغط علينا والذي كان ميشيل فوكو قد دعاه بـ" الموضوعاتية التاريخية ـ المتعالية"11». أما معيار التحقيب الزمني لتاريخ الفكر فهو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أيضا مُستمدّ من فوكو » :إنه المعيار المعرفي العميق أو ما يُدعى باللغات الأجنبية الإبستمولوجي أو الإبستميائي». لقد تفطّن حتى مترجمه نفسه بأن منهجية أركون لا تختلف في شيء عن منهجية فوكو وبورديو « أركون يُطبّق على نقد الإستشراق ما طبقه هؤلاء الروّاد المجدّدون على الفكر الأوروبي الكلاسيكي عامة12 .«

لقد تشبّث أركون بأطروحة فوكو هذه إلى درجة أنه لم يراجعها أبدا ولم يحدس المخاطر الكبيرة التي يمكن أن تنجرّ عنها؛ إنها كارثة ليس فقط على مصير علم التاريخ، بل على أشياء أهمّ من ذلك كما قال أحد المؤرخين الإيطاليين: « إنه يَوم مَشؤوم [...] ذاك اليوم الذي يَتخلّى فيه المؤرّخون عن الإعتناء بالأحداث وبالصراعات السياسية13.«

لكن فوكو يُفعّل كل طاقاته الأدبية ويُجنّد خَطابته الرّنّانة لكي يُجهز على التاريخ الوقائعي: « ها قد مَضَت عشرات السنين واهتمام المؤرخين متركز بالأولى، على الفترات الطويلة، كما لو كانوا يسعون إلى أن يكتشفوا، خلف تغيرات السياسة وتقلّب أحوالها، التوازنات القارة التي يعسر الإخلال بها، والتطورات التي لا ترتدّ على عقبيها، والإنتظامات الثابتة، والظواهر المالية التي تنقلب عندما تصل إلى أوجها بعد أن تكون قد استمرّت حقبا زمنية طويلة، وحركات التراكم والإشباع البطيئ، والدعائم العظيمة الثابتة الخرساء التي كساها تشابك الحكايات التقليدية بغلاف سميك من الأحداث14 .«عوضا عن هذا التاريخ « الذي يَعجّ بالحكومات والحروب والمِجَاعات» أقيمت تواريخ بطيئة الحركة « كتاريخ الطّرق البحرية، وتاريخ القمح ومناجم الذهب، وتاريخ الجفاف والرّي والأراضي، تاريخ التوازن الذي يقيمه الجنس البشري بين العوز والرخاء»؛ على كلّ حال، التاريخ الجديد لا يهدف « إلى تقصّي البدايات الصامتة ولا إلى الصعود اللامحدود نحو الممهّدين الأوائل، بل إلى رَصد نمط جديد من المعقولية15». هكذا، يكفي أن تُوصفَ البداية بأنها صامتة، والصعود بأنه لامحدود، حتى يُصبح التاريخ الوضعي خاطئا، وتفقد منهجيته من نجاعتها .

إن عمل المؤرخ لم يَعد مُقيّدا بالوثائق والمعطيات الخارجية، الوثيقة لا معنى لها في حدّ ذاتها، وبالتالي لا ينبغي اعطاؤها أهمية محدِّدة في سبر الأحداث الماضية بل ينبغي أن توضع هي ذاتها « مَوضع سؤال16». فالوثيقة هي « ضالة المؤرخين، استنطقوها وطرحوا بصددها تساؤلات، فسألوها لا عمّا تريد أن تقوله فحسب، بل وعمّا إذا كانت تقول الحقيقة فعلا، وبأيّ حق تدّعي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ذلك، وما إذا كانت تقول الصدق أم تزيّفه، على دراية بالأمور أم على جهل بها، حقيقيّة أم مزيّفة17». لكن التاريخ الحديث « عَدَّل من موقفه تجاه الوثيقة، فأخذ على عاتقه كمهمّة أولى، لا تأويل الوثيقة أو مدى صدقها، وقيمتها التعبيرية، بل فحصها من الداخل وتدبّرها؛ فهو يُنظّمها ويُجزّؤها ويُرتبها ويقسّمها إلى مستويات، ويُقيم سلاسل، ويميّز ما يستحقّ النظر عما لا يستحقّه، ويرصد عناصر، ويعيّن وحدات ويَصف علاقات18.»

كل هذا السَّيل من الخَطابة والتكرار ـ الذي مَرَّرَه فوكو لأتباعه ومِن بينهم أركون ـ كان يمكنه أن يقوله في كلمتين ويريح القارئ: الوثيقة لا تَدُلّ على الماضي وليست مَرجعا ثابتا نَتقفَّى بها آثار الأحداث، يجب دراستها في ذاتها، أعني في بنيتها الداخلية دون إحالتها إلى شيء خارج عنها. ولكن من أجل الأمانة العلمية، علينا أن نتجرّع خطابة فوكو، كي نُبيّن بالدليل والحجّة ما كنّا قد ذهبنا إليه سابقا من أن المشروع الذي كثيرا ما أشاد به أركون، هو ليس إلاّ استنساخا لأردئ ما أنتجته الفلسفة الفرنسية في العقود الأخيرة من القرن العشرين. يواصل فوكو قائلا: « لم تَبق الوثيقة بالنسبة للتاريخ، تلك المادة الخام التي يسعى من خلالها استعادة ما صدر عن الناس من أقوال وأفعال [...] ليست الوثيقة الأداة السعيدة لتاريخ يكون في ذاته وبكامل الحق ذاكرة19 ». هذا هو التاريخ التقليدي، الذي ينبغي، كما يقول فوكو، تخليصه « من الصُّوَر التي ارتضاها لنفسه زمنا طويلا20.»

لقد ولّى ذاك العصر الذي كان فيه التاريخ « يَسعى إلى أن يجعل من نصب الماضي وأثرياته "ذاكرة"، ويحوّلها إلى وثائق ويَحثّ تلك الآثار على التكلّم، تلك الآثار التي غالبا ما تكون خرساء، في حدّ ذاتها، أو أنها تقول صمتا ما تقوله جهرا21». وقامت مدرسة الحوليات بتدشين عصر جديد أصبح فيه التاريخ « يُحوّل الوثائق إلى نُصُب أثرية، ويَعرض كمّية من العناصر التي ينبغي عزلها وابرازها والربط بينها وحصرها في مجموعات22.»

مدرسة الحوليات إذن هي المعِين الذي استقى منه فوكو انتقاداته للتاريخ الوقائعي **:**تلك هي المدرسة التي أرادت أن تُثوّر التاريخ وأوحت إلى أركون بمقولات التاريخ الحَدَثي، وأتاحت له تفادي ما أسماه وَهْم الموضوعية التاريخية المتعالية: ليس من المبالغة القول بأن هذه المدرسة كانت السبب في تعطيل مسار علم التاريخ في فرنسا لمدّة سبعين سنة تقريبا، وأدخلت التاريخ في حلقة مفرغة، وكادت أن تقضي على أغراضه العلمية تماما**.**

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

» ما أكتُبُه هو تاريخي أنا23»، هكذا يقول جورج دوبي، مُركّزا على ضمير المتكلِّم، يعني أن التاريخ فقَدَ مثال الموضوعية وأصبح مُجرّد نزعة فرديّة تهجم فيها الذات بكلّ ثقلها لتُشرّط عمل المؤرخ، هذا ما صرّح به دوبي وأكد عليه: « لا أنوي، على الإطلاق، إخفاء ذاتوية خطابي». إنه شيء مُذهل حقا: التاريخ أصبح تاريخه هو بالذات، يَلعَب فيه خَياله الشخصي دورا استكماليّا حينما تنقصه الموادّ والوثائق24. التاريخ، أو كتابة التاريخ هي من جنس الأدب، لها علاقة بالأدب التّرفيهي، وبالتالي فإن المؤرّخ يستخدم خياله الخلاّق، مثل الأديب، لكتابة التاريخ، مع فارق بسيط، وهو أن المؤرّخ مهموم بحقيقية الشيء أكثر منه بواقعيته25. لقد وصل اليأس من الموضوعية التاريخية إلى درجة أن لوسيان فيفر، في كتابه عن ديانة رابليه (Rabelais) قال بأن كلّ عصر يَصنَع تَمَثّله للماضي، أثينتَه، رُومَاه، قُرونَه الوسطى، نَهضتَه؛ وبأنه حتى بحضور المهارة العلمية وتَوفّر المواد الأولى فإن كلّ البناءات التاريخية تبقى خياليّة، وبالتالي ليست أكثر صدقا من تلك التي سبقتها: فالمؤرخون القدامى صوّروا نفس الحقبة بحسب اهتماماتهم ومصالحهم، وقد تكون التواريخ الحديثة، أَثْرَى وأَزخر منها، ولكنها ليست أصدق26. هذه النسبوية التاريخية المشِطّة كانت بالنسبة لأركون » بمثابة الصاعقة أو الوحي الذي يَنزل عَلَيّ. لقد كشفَت لي الطريق . هكذا يعترف أركون . الذي ينبغي أن أسلكه [...] ولولا مَجيء لوسيان فيفر من باريس وإلقائه تلك المحاضرة العصماء وحضوري إياها بطريقة تُشبه الصدفة لربّما بقيتُ نائما كغيري دون أن أحسّ بشيء27 .«

على كلّ حال دوبي يوافق تماما هذه العدمية التاريخية ويؤيّد فكرة لوفيفر في نزع التقدّم العلمي والموضوعية عن عمل المؤرخ، ويحيل صناعة التاريخ إلى الذات فقط: « أنا مقتنع بعدم إمكانية تفادي ذاتوية الخطاب التاريخي28». التاريخ هو نوع من التحليل النفسي الذاتي؛ إنه نِتاج حُلم، كما يقول دوبي، والكلّ له الحق في أن يحلم كما يشاء، لأن الواقع لا وجود له، وبالتالي (وهذا استنتاجي) فإن بَهلوانا كفوريسون (Faurisson) لا يمكن أن نَنقُض أحلامه أو نُفنّدَها، فمعيار الصدق معدوم والحدث التاريخي غائب .

ولكن المؤرخ دوبي، على العكس من ذلك، متأكد من شيء واحد، وهو أن « المسيحية هي دين مُؤرّخين » كما قال أيضا زميله بلوخ؛ علم التاريخ هو علم مناسب للغرب المسيحي فقط، أما الصين والهند والعالم الإسلامي وإفريقيا السوداء فإنهم لم يُنتجوا تاريخا البتّة (كلام دوبي). وذلك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لسبب بسيط وهو أن الفكرة التي « تَتَمثل سيرورة الإنسانية كشيء مُرتَبِط بمُتّجَه (vecteur) مُعيّن، هي إحدى العناصر الجوهرية في الثقافة المسيحية[29]»، كلّ شيء نَبَع من المسيحية، لا بل إن « مفهوم زَمَنٍ مُنتَظم ومُوَجَّه؛ مفهوم التاريخية، مُتضمَّن في المسيحية[30]». هذا هو جورج دوبي الذي أشاد به أركون، واقتفى أثرَه وأثر زملائه[31]؛ دوبي لم يثوّر التاريخ، وأحكامه القاسية ضدّ الحضارات الأخرى، تُبيّن أنه لم يتخلّص من النظرة العنصرية للآخرين، ومن المركزية الغربية، وتاريخ الحوليات لم يُعلّمه شيئا وما كان ليُعلّمه .

لقد تمثّل أركون هذه الأفكار العدمية وحتى أطروحات بعض المراجعين للتاريخ مثل فوريه (Furet)وقال، مدعّما النسبوية التاريخية بأنه « يُمكن للعَرب أن تكون لهم قراءتهم الخاصة عن الثورة الفرنسية، وهي قراءة تُلبّي حاجيات المجتمعات العربية ومطالبها الإيديولوجية في لحظة ما من لحظات التاريخ، أكثر ممّا تُقدِّم صورة حقيقية عن الثورة الفرنسية ذاتها[32].«

يعني أن المؤرخين العرب لا ينبغي عليهم أن يُقدِّموا الحقيقة على المصلحة، أو يحاولوا الإهتداء إلى قراءة علمية لحدث تاريخي ما، بل الحاجة الإيديولوجي الملحّة هي المحرك لأعمالهم. لماذا نعيب على الفرنسيّين تدليسهم لتاريخنا؟ لماذا نستنكر إعادة كتابة التاريخ على حساب الحقيقة العلمية، وعلى حساب الشعوب المستعمرة؟ حسب أقوال أركون، الفرنسيون محقون في ذلك إن كان الغرض هو إعادة اللحمة القومية وتمتين الإحساس بمهمّتهم التاريخية. هذا استنتاج منطقي ضروري، لا يمكن تفاديه. وأودّ أن أعارض في كلامي هذا.

ليس من المستغرب، على أساس مواقف من هذا القبيل، ألاّ تُحضى أفكاره بالترحيب من طرف العلماء الغربيّين أنفسهم، وقد اعترف قائلا: « إنهم لا يُصدّقونني حتى الآن ولا يقتنعون بمشروعية هذا التجديد المنهجي والإبستيمولوجي الذي أدعو إليه[33]». ولقد كانت صدمته على أشدّها حين عَلِم بأن كلود كاهين، الذي خصّص له دراسة مطولة في سنة 1996 بمجلّة (Arabica)، هو مِن بين أولئك العلماء الذين يرفضون منهجية تاريخ الحوليات التي يدعو إليها، وبالأخصّ يُعارض بشدّة أعمال: « الشخصيّتين العلميتين الكبيرتين :فرنان بروديل صاحب الكتاب الضخم عن المتوسّط، و د. غواتان[34]». إن اعترافاته الشخصية فيها شيء من المرارة والخيبة، ولكن فيها نوع من التعنّت وإجهاد لروح العلم لا مُبرّرَ له أصلا. أركون، يرغب في أن يَنظَمَّ المؤرخون، دون حقّ الفحص والنقد، إلى صَفّه ويتقبّلوا سفسطة مدرسة الحوليات: « أعترف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بأن كلود كاهين قد صدَمني كثيرا وخيَّب أملي بسبب موقفه السلبي (وغير المفهوم) من فيرنان بروديل. فلم يكن يَطِيق سماع اسمه!35»، ثمّ يستنكر على كاهين إعراضه عنهم، ويتساءل: « لماذا هذا الموقف العدائي من زعيم التجديد في مجال البحث التاريخي والمنهجية التاريخية36»، وأخيرا ينصحه بالتراجع عن مواقفه وبتَقبّل تلك الأعمال التي تناقض، سواء في المنهج أو النتائج، أعماله التاريخية، وذلك لكي يتمكّن من فهم الشرق الإسلامي. حقيقة أشياء مُربكة، وتصريحات لا تليق بالمفكّر، ولكن كاتب هذه السطور يُوردها هكذا في عرائها لكي يبرهن، بالدليل والحجّة النّصيّة ـ كما أكد على ذلك في بداية المقال ـ على آرائه وأحكامه تجاه أركون. كان على كلود كاهين أن يتبنّى بروديل وأعماله؛ من المفروض أن يكون الأمر كذلك، لكنه لم يفعل، وهذا بِحدّ ذاته مدعاة للإحباط وخيبة الأمل، لأنه، حسب أركون: « لو قَبِلَ [كلود كاهين] أن يَستلهِم أعمال هذا الزميل المجدِّد لاستفاد كثيرا من بحوثه عن الضفّة الجنوبية والشرقية للمتوسط، ولكان تراجع عن ذلك الإستخدام السهل لمصطلحيّ " الشرق الإسلامي" بشكل تعميمي. لو أنه اطلع على أعمال بروديل لقام بنقد صِحّي وضروري لهذين المصطلحين ولما ألقى الكلام على عواهنه37». لكي يُقلع كاهين على استعمال مصطلح متداول منذ عصور غابرة، أعني " الشرق الإسلامي" عليه أن ينتفع بالحوليات وتاريخ بروديل. ليس لديّ شيء آخر أضيفه. أترك الحكم النهائي للقارئ.

4. العدمية المُكتمَلة :

إعادة تأهيل الخطابات اللاعقلانية، ووضعها على قدم المساوات مع الإنتاجات العلمية، هي الأطروحة الثابتة التي استقاها أركون من فوكو. لقد ذهب هذا الأخير في كتابه " حفريات المعرفة" أن في عالم الخطاب، ليس هناك تمييز أو تفاضل بين أصناف المعاني، ذلك لأنه مِن غير المعقول « أن نَقبَل، هكذا، وعلى عِلاته، تمييزا كذلك الذي يُظَنّ أنه قائم بين أنماط الخطاب الكبرى، أو كذلك الذي يُعتقد أنه يوجد بين أشكال وأنواع متعارضة فيما بينها، كالعلم والأدب والفلسفة والتاريخ والخيال الخرافي38.»

إن منهجية فوكو، التي استمدّها منه أركون وطبّقها على القرآن، تتلخّص في الفكرة المحورية التالية: « التعامل مع العبارة كشيء قائم الذات لا يُحيل إلى مستوى آخر، والنظر إلى ما في خصوصياتها وتَميُّزها كحدث لا أصول له، وتحديد شروط وجودها، وتعيين حدود تلك الشروط بكيفية دقيقة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وواضحة أكثر، مع إبراز الترابطات القائمة بين العبارة وعبارات أخرى لها صلة بها[39]». وهذه المنهجية تتضارب مع منهجية تاريخ الفكر، أو ما دعاه أركون، منهجية العقل الكلاسيكي للإستشراق، حيث « تحليل الفكر هو دوما وباستمرار تحليل يسعى إلى البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي، يبحث عما وراء الخطاب[40].»

هذا هو علم فوكو الجديد الذي سمّاه حفريات المعرفة، فهي حفريات لا تُعنى بتحديد الخواطر والتمثلات والصور والأفكار المحوريّة والموضوعات الأساسية التي تختفي وتظهر في الخطابات، « لا تنظر إلى الخطاب على أنه وثيقة، ولا تعتبره علامة أو إشارة تحيل إلى شيء آخر[41]». إن حفريات المعرفة هذه، والتي أجرؤ القول بأنها عَبث فكري وعدمية نظرية مُدمِّرة، لا ترى في الخطاب « عنصرا، مَهمَا بلغ من الشفافية، نكون ملزمين، في الغالب الأعمّ، باختراق عتمته وضبابيته، حتى نصل أخيرا إلى حيث يقبع ما هو عميق وجوهري فيه». ما مُهمّة الحفريات؟ وبماذا تعنى إذن؟ فوكو يُعيد على مسامعنا ما قاله وردّده عديد المرات؛ حفيرياته « تُعنى بالخطاب في حدّ ذاته بوصفه نصبا أثريا .فحفريات المعرفة ليست مبحثا تأويليا: ما دامت لا تسعى إلى اكتشاف "خطاب آخر" يتوارى خلف الخطاب. كما ترفض أن تكون دراسة تبحث عن المعنى الحقيقي خلف المعنى الظاهر، فهي ليست مبحثا مجازيا[42]». هذه الخَطابة الرّنانة، هذه الفلسفة الأدبية، التي تربط في مكان وتحل في آخر، وتدّعي أن الخطاب لا يحيل إلى شيء آخر، ثم تَمنع من الكشف عن الأصول وعن العلل والأسباب، هي التي شجّعت أركون على عدم اتخاذ أي رأي بشأن النصّ القرآني.

أما ما دعاه أركون بالأطراف والهوامش[43]، فقد استوحى هذه الفكرة أيضا من تخريجات فوكو، حيث يصف منهجه بأنه « يحكي تاريخ الأطراف والهوامش، ولا يحكي، إطلاقا، تاريخ العلوم، بل تاريخ تلك المعرف الناقصة غير المؤسسة والتي لم تتمكّن، في يوم من الأيام طيلة حياتها المثابرة، من الحصول على الصفة العلمية...تاريخ تلك الفلسفات الأشباح التي تخالط الآداب والفن والعلم والقانون والأخلاق وحتى حياة البشر اليومية[44].»

نيتشه عَلّم فوكو الإقلاع عن تتبّع المعاني أو حتى البحث عن المغزى الحقيقي وراء الكلمات، والإكتفاء فقط بالمتكلّم، مكانته، هويّته، انتماؤه، فعلا « لم يكن المقصود بالنسبة لنيتشه التوصل إلى معرفة الخير والشرّ في الجوهر، بل اكتشاف مَن المعِنيّ، أو بالأحرى مَن المتكلِّم[45] .»

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

****

لو أنّ عدمية أركون اقتصرت فقط على الجانب المعرفي لما أولياها أهمية كبرى، لأنها من التهافت والهشاشة بحيث أنه من الهيّن جدّا على الفيلسوف أن ينقضها جملة وتفصيلا .لكن مُعاداته للعقل التنويري، الذي يدعوه بكل احتقار "العقل السكولاستيكي"، أي العقل الذي يبغي اكتشاف الحقيقة، وعدم الركون إلى الخَطابة والمفارقات، لها استتباعات عملية خطيرة: لقد أدت بأركون، في نهاية المطاف، إلى مناهضة الديمقراطية وإلى تكرار تُهم كثيرا ما كررها الأصوليون والدكتاتوريون في العالم العربي .الديمقراطية الغربية هي ديمقراطية استهلاكية، تحيا وتموت في حينها « وعلى الرغم من ذلك فإنهم، أي الغربيين المسيطرين، يأمرون الشعوب النامية والثقافات المتخلفة باعتناق هذه الديمقراطية التمثيلية الليبرالية الإنتخابية46.»

هذا الموقف ليس مستغربا من أركون، لأن الرجل هو أيضا مِن مُناهضي العلمانية بالقول والفعل، فهو ما فتئ ينصح فرنسا بأن تُغيّر مناهج تعليمها وتُقحم الدراسات الدينية في معاهدها ومؤسساتها التعليمية47. لكن استتباعات أفكار أركون على الجانب النظري لا تقلّ خطورة، ليس على قرّائه فقط بل على مشروعه هو بالذات. ذلك لأن مَن يَقِف على أرضية من هذا القبيل فإنه من الصعب جدّا أن يُنتج علما، بل ستغلب على أعماله الخطابة المطوّلة والإختزال والأخطاء وعدم الدقّة في الإحالات (انظر مثلا التبسيطات التي وقع فيها حينما تكلّم عن الفلسفة الحديثة وخصوصا عن فلسفة كانط الدينية48، أو في حديثه عن "تصوّرات السعادة والتوقان إلى النجاة في الفكر الإسلامي"، حيث وَعَد بالتحدّث عن مفهوم السعادة خصوصا في "تهذيب الأخلاق" لمسكويه، إلاّ أنه لم يستشهد ولو بكلمة واحدة من الكتاب الكلاسيكي الذي تناول مفهوم السعادة، أعني "أخلاق نيقوماخوس" لأرسطو، ولا حتى أورد جُملة واحدة من كتاب مسكويه49؛ لقد استشهد بنفسه وأشاد بأعماله وبالمهامّ الإستكشافية الملقاة على عاتقه وتاه في مواضيع ليست لها علاقة مباشرة بموضوع البحث50.(

قد لا نتعجّب إذن والحال هكذا، إن عثرنا في صفحات كُتُبه على مواعظ دينية أو دروس في التربية الإسلامية على الشكل السلفي الوهابي، الذي ادّعى أنه نذر حياته العلمية بتمامها لمحاربته وتفنيده. الرجل مؤمن مقتنع كمثله من المؤمنين لا يختلف عنهم طرفة عين: فالوحي، أو ما يدعوه أركون بالخطاب النبوي، يؤدي حسب اعتقاده دورا عظيما في اقتصاديات الخلاص، بحيث أنه عن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

طريق الوحي « يَظهَر لأول مرة في التاريخ إنسان الميثاق المتعاقد مع الله الحي، المتكلّم، الفاعل في التاريخ الأرضي، من أجل إغناء وتوسيع العلاقة المتبادلة بين الإنسان ـ والله، أو الله ـ والإنسان [...] وبفضل الغِنَى الكاشف للخطاب النبوي فإن الإنسان يرتقي إلى مرتبة الشخص وكرامته عن طريق استبطان الله كمقابل حميمي. ويحصل هذا الإستبطان عن طريق الصلاة وعمل الخير والتأمل في كلّ آيات الله في خلقه وفكّ رموزها. كما أنه يتمّ عن طريق هذه النعمة التي خصّ بها الله الإنسان من بين جميع المخلوقات وحمّله تلك المسؤولية الثقيلة لإدارة وتسيير شؤون النظام العادل بصفته "خليفة الله في الأرض"51.»

ليس من سبيل المبالغة أنني قُلتُ بأن مواعظ أركون لها نفس طبيعة المواعظ الوهابية، فعبارة " إنسان الميثاق المتعاقد مع الله"، ثم الأخرى: "خليفة الله في الأرض"، علاوة على أنها عبارات مُوغِلة في التشبيه ومُخلّة بمبادئ التنزيه والتعالي الإلهي، فهي تُعتَبر من بين المكونات الجوهرية في إيديولوجيا الإستخلاف الوهابية52. أما "التأمل في الخلق" و"استبطان الإله"، فهذه أقوال خارجة عن مدارك عقولنا، ولا داعي لمناقشتها.

يؤسفني أنني لا أتحاور مع فيلسوف مَحض، وكأني بكاتب السطور أعلاه هو مِن الفقهاء أو الوعّاظ، ولا ينتمي إلى زمرة المفكرين العقلانيين الذين كثيرا ما تَهجَّم عليهم أو تملّص منهم وعارضهم بشدّة. لقد اتَّهم كلّ من يَبحث عن حقيقة ثابتة وغير خاضعة للتاريخ بأنه مثالي، ولكنه، في مقابل هذه المثالية السّيئة، يُقدّم البديل الذي يسمّيه بالحرف « مَوعظة وذكرى53 .»

ويكفي للتثبّت من مواقفه الإيمانية، معارضته دون رجعة لأولئك المفكرين العلمانيين الذين يَرفضون إضفاء القُدُسية على الكتب المدعوّة "مُنزّلة" ويعتبرون الوحي « باطلا" علميا" أو تجريبيا54». لقد موقع نفسه، وأعرب صراحة عن منحاه الإيماني، معترفا باختلافه عن المفكرين المعاصرين الذين وصفهم بالعنجهية والغرور، وبالتغطرس لأنهم يحتقرون المؤمنين احتقارا، ويزجّون بهم في ركن الفئة غير العلمية. أما هو شخصيا فإن منهجيّته الجديد لا تهدف « إلى احتقار القديم أو الماضي أو الدين أو العقائد أو التراث باسم العلم الحديث المتأكد من قواعده ومبادئه ومناهجه ونتائجه». ذلك لأن » التضادّ الحادّ والقاطع بين التراث والحداثة لم يُشكل في التاريخ إلاّ لحظة محددة هي لحظة العقلانية العلموية التي فرضت تحديداتها ووصفاتها. لقد تجاوزنا هذه المرحلة الآن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إن المجتمعات تتكلّم على عدة مستويات وينبغي أن نتلقّى كل خطاب على المستوى المعرفي الخاص به ومن خلال المقولات التي ساعدت على تشكيله وتمَفْصُله55 .»

لكن بالنسبة لأركون العصر الذي اضطهد الفكر الأسطوري وهمشه قد انقضى، والدليل على ذلك » الجهود التي يبذلها حاليا علم الاتنولوجيا من أجل إعادة الإعتبار للأسطورة والتركيبات الأسطورية و"الخرافات" و" الحكايات" و"الشعوذات" و"السحر"، إلخ56». لقد ضُخّم كثيرا، في الماضي، من دور العقل وعَملت الثقافات على « احتقار الخيال أو المخيال وعدم التعرّض له إلاّ نادرا57.»

يجب دحض الفكر العلماني الوضعي، الذي يروّج إليه العلماء، وأركون يقصد تحديدا المستشرقين العلمانيين والمؤرخين وعلماء الألسنيات، وحتى المفكرين العرب التنويريّين، ذلك لأنهم « يَحِلّون التفسير الوضعي والعلموي مَحلّ غيره من دون أن يَعوا أن النصّ الديني هو أوّل مرجعية وجودية إجبارية بالنسبة للمؤمن58». أركون يعارض بكلّ حزم هذا النهج، أعني نهج أولئك الذين يكتفون فقط بالتفسير الوضعي العلموي، ويتملّص منهم قائلا: « ليس هذا موقفي59.»

يبدو أن إنطفاء شعلة الفضول العقلي وضمور الهواجس النظرية، التي نجدها عند أركون، والتي يبثّها إلى قرّاءه، سببها الأساسي هو نظرَته للعالم، وتصوّراته الأنثربولوجية المتشائمة: فالعالم هو كيان مُغلق لا يمكن فهمه، والكلمات لا تحيل إلى الأشياء، وليس هناك ظواهر يمكن تعليلها، والتاريخ فاقد للموضوعية، والمقدّس لا يمكن الإستغناء عنه، والأساطير والخرافات والسحر والشعوذة تُنتج المعنى كما يُنتجها العلم والدين. عن طريق هذا الصنف من الفكر العَدمي لا يمكن أن تُرَبَّي اهتمامات نظرية جدّية، بل إن البعد النظري العقلاني، يفقد جدواه ويصبح نافلا، وعبثيّا .

لا يجب المساس من معتقدات الناس؛ مِن رأسمالهم الرمزي على حد تعبير بورديو، ولا البوح بالحقائق العلمية بهدف تغيير العقليات وبثّ روح التنوير. أركون يتحالف، بأطروحته هذه، مع الوعي الشعبي ضدّ المفكرين الأحرار. وأرى أن خلف هذه الأقوال هناك رغبة) واعية أو لاواعية) في تأبيد حالة الجهل، ومنع الناس عن حبّ الإطلاع والخروج من نفق الجهالة. الحرية الفكرية لها مجال خاص وزمن محدّد ولا تمتد لتشمل الكل، إن كانت الظروف السياسية والإجتماعية مُتوتّرة، يجب تعطيل العلم والمعرفة وتكميم الأفواه، هذا ما يقصده أركون صراحة حينما يقول بأنه: «

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ضِمن هذه الظروف تُصبح حرّية الفكر تَرفا ما بعده ترف60». وطبقا لمبدأ التقية هذا فإن الرجل يُدِين ذاكرة المفكرين العرب التنويريين مثل طه حسين وعلي عبد الرازق ويقول بالحرف: « لقد تَهوّر بعض الكتّاب وتسرّع في إدخال نظريات علمية شديدة الجدّة حتى بالنسبة للغرب الذي اكتشفها كنظرية داروين فيما يخص تطور الأنواع. يمكن أن يُقال نفس الشيء فيما يخص طه حسين وعلي عبد الرازق اللذين برهنا على سذاجتهما الفكرية عندما اعتقدا بامكانية التعرّض لموضوعين مشحونين بالتصورات الميتولوجية والدينية والتقديسية...61». لا تحضرني في هذا المقام إلاّ قولة للفيلسوف الإيطالي بندتو كروتشي(Benedetto Croce) ، الذي صرّح فيها ـ بعد أن اطّلع على خطاب العمادة لهايدغر ـ قائلا: « لقد قرأتُ بالكامل خطاب هايدغر، إنه شيء أحمق وعبودي. لا أستغرب الشّهرة التي ستحوز عليها، لبعض الوقت، طريقته في التّفلسف: الخواء والعموميات دائما تكسب الشهرة. لكنها لا تُنتج شيئا .أعتقد أن الرجل في ميدان السياسة لن يكون له أيّ تأثير يُذكر، لكنه يُدنّس الفلسفة وهذا ضرر حتى على السياسة ذاتها62». أجل، الخواء والعموميات لا تنتج شيئا، لكنها تضرّ بالسياسة وتُدنّس العلم، فلو أن المثقفين العرب اتّبعوا نصائح أركون لَمَا كتب صادق جلال العظم " نقد الفكر الديني" ولما تجرّأ، في تلك الفترة بالذات (أحداث سلمان رشدي والآيات الشيطانية)، على كتابة "ذهنية التحريم"، ولَكَبَتَ أفكاره وعِلمه بين جنبيه، أو أرجأها إلى أجل غير مسمّى حتى تمرّ الأزمة وتنطفئ نار الفتنة .

المبدأ الأساسي عند أركون هو هذا: « لا يَحِقّ لك كمفكّر أن تَستهين بهم] بالمؤمنين] أو أن تَحتقر مُعتقداتهم ... قليلا مِن الحَياء إذن63». غريب جدّا أن يَطلب الرجل مِن مُنتقديه " قليلا من الحياء"، وهو الذي شنَّع على العالم الإسلامي ـ ثم يزعم الدفاع عنه ـ واحتقَر المثقفين العرب ولم يُفوّت فرصة واحدة64 إلاّ وأهانهم فيها، وأمعن في إهانتهم وذلك في أيٍّ من مؤلفاته التي ألّفها منذ بروزه على الساحة الثقافية العالمية. أقول: ليس مِن النُّبل والسَّخاء الردّ على أركون : "قليلا من الحياء"، ولكن " قليلا من التواضع" لازمة في هذا المقام.

على كلّ حال، أرى أنهم لم يُجانبوا الصواب أولئك الذين اعتَبروا فكر أركون ومشروعه النظري من باب الطوباوية، بل إن أركون ذاته اعترف بأن مشروعه ليس إلاّ « أُمنِية طوباوية» ، ولكنه برّر طوباويته تلك، وعدم تَحقُّق أهدافه بسبب غياب « قاعدة سوسيولوجية عريضة و [...] جماهير65 .»

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

كيف يمكن، موضوعيّا، لأركون أن يُكوِّن قاعدة شعبية تَتبنّى أفكاره انطلاقا من مسلّمات عدمية من ذاك القبيل؟ كيف يمكن له ذلك وقد نَبذَته الجماهير المؤمنة ورفَضه العلماء؟ المؤمنون غاضبون عليه لأنه أوهم بإدخال التاريخانية في قراءة نص القرآن، وادعى تنسيب الوحي؛ أما العلماء الوضعيّون فقد أصيبوا بخيبة أمل من تَعلّقه المفرط بمناهج البنيوية والسيمياء وأركيولوجيا فوكو وتاريخ الحوليات، وتَذبذبه بين مواقف علمية منفتحة وأخرى إيمانية منغلقة66. كان على أركون، إن أراد لنفسه تكوين ما أسماه بقاعد سوسيولوجية عريضة، أن يردّ الإعتبار للعقل، وأن يختار بوضوح وصراحة ـ كما فعل المفكّرون العرب المستنيرون ـ أطروحاته ومواقفه وأن يدعّمها، ليس بالخطابة الرنانة ولكن بالبراهين المنطقية والتحاليل العميقة الموثقة ؛ كان عليه أن يختار: إمّا الإيمان الصرف أو العلم، فالجمع بينهما مستحيل كاستحالة أن نحصل في نفس الوقت على شكل مربّع ومستدير.

****

محمد أركون ليس هو بأرسطو، وشارحه، هاشم صالح، ليس هو بابن رشد، وقد لا يُوافقان على هذه التسمية لأن أحدهما يُزكّي الآخر67، وكِلاهما يَجتمعان في نقطة ثابتة ومُوحّدة ألا وهي ضرب العقل العلمي والتنوير والوضعيّة، والتشبّث بمواقع إيمانية مُلحّفة بلحاف شبه علمي تنويري. كل مواقف أركون تتلخّص في هذه القولة السلبية الجازمة: « لا أريد اختزال الظاهرة الدينية أو نفي الوحي كما يفعل الكثيرون68 .»ومواقف هاشم صالح تتلخّص في هذه القناعة: « الخطأ والكذب... ضروريان للحياة أكثر من الحقيقة69 .»

وأن يَدّعي مُترجمه، هاشم صالح، بأنه « تَلزم عدّة كتب من أجل شرح كتاب واحد مُترجَم له!70»، فهذا لا يستثيرنا كثيرا ولا نعجب منه، لأن الرجل فَقدَ الإحساس بالواقع، فهو يدّعي بأنه لا يعيش بَينَنا ولا ينتمي إلى عالمنا، بل إلى جيل أوروبي انقرض منذ ثلاثة قرون71، أما أركون فإنه يُريد الغوص في دنيا لا وجود لها، دنيا الوحي الشفهي الذي امّحى بلا رجعة، ويُحاول الدخول في أذهان أناس ماتوا منذ 1400 سنة خلت.

نحن مِن هذا العالم، نعيش فيه بكل جوارحنا، نودّ أن نعرف قوانين هذا الكون، والكشف عن أسراره، نُؤمِن بالعقل، ومقتنعين بقدرته المعرفية المطلقة؛ نحن مُنغمسون في واقعنا، شئنا هذا أم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أبينا، بكلّ ما يحمله مِن نَكَد وضَنك، وحروب وحشية تنطفئ في مكان لكي تشتعل في مكان آخر. وكثير من تلك المِحن والحروب التي تُعاني منها البشرية مَردّها الأساطير والأديان: أسطورة شعب الله المختار وإسرائيل الكبرى، أسطورة التواراة التي كَتبها يهوه بأصابعه؛ أسطورة موسى مُخلّص بني إسرائيل من عبودية المصريين؛ خرافات حول ولادة عذرية، نهاية العالم، بناء المعبد الجديد على أنقاض المسجد الأقصى، أسطورة المسيح والمسيح الدجال؛ أساطير الوحي والنبوّة وإعجاز القرآن، والخوارق والمعجزات، إرعاب الناس بكائنات خرافية: الشيطان، الجنّ، ملك الموت، عذاب القبر، منكر ونكير. كلّ هذه الأساطير لم يُناقشها أركون بجدية ولم يُخضِعها إلى تمحيص عقلاني، وهذا أمر يُعجَب له حقّا، خصوصا لمن سمع بشهرته الفائقة وبغزارة انتاجاته، ولكن الدارس الذي يباشر كُتبه بروح نقدية لا يعجب كثيرا، لأن الرجل يؤمن بتلك الأساطير (على الأقل تلك التي تخصّ الدين الإسلامي) إيمانا كلّيا، وعلى العكس مِن ذلك فهو لا يؤمن بالعقل بتاتا .

المطلوب من العالِم المتبصّر أن يناقش هذه المسائل ويَضع الأديان على محك العقل وينوّر الناس، باثا فيهم روح الفضول النظري وحب المعرفة، وتشجيعهم على القطع مع نسق الخرافات والأساطير التي لا تؤدي إلاّ إلى الكوارث، لكنه لم يفعل ذلك، ولا يمكن أن يفعله، لأنه لو أقلع طرفة عين عن نهجه اللاّعقلاني العدمي وتخلى عن عادته في إهانة العقل، ولو قذف صراحة بالأديان والكتب المقدّسة في عداد الخرافات، لما كان أركون، ولَما كَلّفنا أنفسنا عناء كتابة هذا النصّ لدحضه.

محمد المزوغي، أستاذ الفلسفة. معهد الدراسات العربية والإسلامية .روما .

الهوامش:

1ن. م، ص، 13. (التشديد من عندي.(

2محمد أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، م. س، ص، 35.

3محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م. س، ص، 43، هامش، 6.

4محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، ص، .214 هامش، 1.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

5محمد أركون، الفكر الإسلامي. قراءة علمية، م. س، ص، 278.

6ن. م، ص، 140. هامش، 32.

7محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م. س، ص، 260. هامش، 1.

8ن. م، ص، 209.

9أقول سيّد الموقف إلى درجة أن أركون يشبّه ما فعله فوكو بما يفعله هو الآن في حقل الدراسات الإسلامية: « إن الثورة التي أحدثها ميشيل فوكو في الساحة الفرنسية، عندما فكّك أُسس الإنسية البورجوازية والعنجهية والتقليدية الأوروبية تُشبه ما نفعله نحن في الساحة الإسلامية والعربية». حقيقة كان عليه أن يعكس الآية، ويقول بأن أعماله تُشبه ما قام به فوكو، لا أن أعمال فوكو تشبه ما يفعله هو. انظر محمد أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، م. س، ص،.334

10محمد أركون، ، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م .س، ص، 88.

11ن. م، ص، 91.

» 12هل يختلف نقد أركون لمنهجية الإستشراق الكلاسيكي عن نقد ميشيل فوكو لتاريخ الأفكار التقليدي الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر، أي في القرن الذي شهد ظهور الإستشراق؟ لا أعتقد. هل يختلف عن نقد بورديو للنزعة الفكرية المحافظة في علم الإجتماع؟ لا أعتقد. وإذن فإن أركون يطبّق على نقد الإستشراق ما طبقه هؤلاء الروّاد المجدّدون على الفكر الأوروبي الكلاسيكي عامة». ن. م، هامش ص، 147.

13 G. GALASSO, Storia e sociologia, in M. DEL TREPPO, La libertà della memoria, cit in M. CEDRONIO, F. DIAZ, C. RUSSO, Storiografia francese di ieri e di oggi, Guida, Napoli, 1977, p. XV.

14ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت،) ط. 2)، المركز الثقافي العربي، بيروت. الدار البيضاء، 1987، ص، 5.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

15ميشيل فوكو، ن. م، ص، 6.

16ن. م، ص، 8.

17ن. م، ن. ص.

18ن. م، ن. ص.

19ن. م، ص، 8 ـ 9.

20ن. م، ص، 8.

21ن. م، ص، 9.

22ن. م، ن. ص.

23حوار بين جورج دوبي ولاردرو

G. DUBY, Dialogues, Flammarion, Paris 1980 (trad., it., Il sogno della storia, Garzanti, Milano 1987, p. 39)

24ن. م، ص، 40.

25ن. م، ص، 42.

26ن. م، ص، 44 ـ 45.

27محمد أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، م. س، ص، 252.

28جورج دوبي، حوارات(Dialogues) ، م. س، ص،.45

29ن. م، ص، 134.

30ن. م، ص، 135.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

31يقول بخصوص أعمال فرنان بروديل والثورة التي قام بها في التأريخ لحوض البحر الأبيض المتوسط: « كان فيرنان بروديل قد افتتح بكلّ ألمعية واقتدار المنظور الحديث لتاريخ عالَم البحر الأبيض المتوسط. ولكن هذا المنظور لا يزال أبعد من أن يفرض نفسه سواء في الجهة الغربية أم في الجهة الإسلامية». انظر، محمد أركون، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، م. س، ص،.152

32محمد أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، م. س، ص، 233.

33محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، ص،.82

34ن. م، ن. ص .

35ن. م، ن. ص.

36ن. م، ن. ص.

37ن. م، ص، 82 . 83.

38ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، م. س، ص، 22) .التشديد من عندي.(

39ن. م، ص، 27.

40فوكو، ن. م، ن. ص.

41ن. م، ص، 128.

42ن. م، ن. ص.

43محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م .س، ص، 27. « هناك خاصية أخرى عامة تشترك فيها كلّ الأدبيات التأريخية وتتمثل في استبعاد كلّ الجانب غير المكتوب وغير الحضري وغير النخبوي للحياة الإجتماعية والثقافية.«

44ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، م. س، ص،.126

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

45ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، م. س، ص،.255

46محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، م .س، ص، 177.

47محمد أركون، معارك من أجل الأنسنة في السّياقات الإسلامية، دار الساقي، بيروت 2001، ص، 267 وما بعدها.

48محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ن. م، ص، 207 ـ 209.

49محمد أركون، معارك من أجل الأنسنة في السّياقات الإسلامية، م. س، ص، 189. أركون يَعِد القارئ بهذه الكلمات: « سوف أتحدّث من بين الأسماء المذكورة عن مسكويه، صاحب كتاب تهذيب الأخلاق» لم يستشهد ولو بنصّ واحد من كتاب مسكويه، لكنه اكتفى بالقول، دائما حسب عادته في المبالغة والتهويل: « هذا الكتاب يمثل التعبير الأكثر وضوحا وشمولا والأفضل تأليفا وتأثيرا عن موضوع السعادة في السياق الإسلامي.«

» 50لكي نتجاوز الجوانب الجدالية والصراعية والسياسية لهذه المناقشة المتكرّرة على مدار التاريخ بين "الإسلام" و "الغرب"، فإنه ينبغي علينا أن نعيد التفكير في تلك القطيعة ذات الجوهر الفكري والروحي. وأقصد بها القطيعة التي أحدثتها أوروبا الغربية التاجرة والرأسمالية والعلمانية منذ القرن السادس عشر. ثم عممت هذه القطيعة على جميع الثقافات البشرية بعدئذ. ولكن ليس هنا المكان المناسب لتعميق الحديث حول هذه النقطة الحاسمة. أريد فقط أن أشير إلى حجم المهامّ الملقاة علينا من قبل تجميع الأوصال الفكرية والروحية والثقافية للفضاء الإغريقي ـ السامي. وكان يمكن أن أقول توحيد هذا الفضاء بجميع ثقافاته وتراثاته) التشديد من عندي)». ن. م، ص، 188 ـ 189. ويبدو أن مُترجمه، هاشم صالح، اتبع نفس منوال أركون، والدليل على ذلك أنه في كتابه "مدخل إلى التنوير الأوروبي" وبالتحديد في الفصل الرابع بعنوان "رُوّاد التنوير الأوائل" حيث أثنى الرجل على المفكّر الحرّ بيار بايل(Pierre Bayle) ، قائلا بأن هذا المفكر قد نسيه الفرنسيون « على الرغم من أنه كان الممهّد لفولتير باعتراف الجميع»، لا نعثر اطلاقا على استشهاد ولو بنصّ واحد، بل ولو بكلمة واحدة من كتابات بيير بايل، الذي ادعى سابقا بأن الفرنسيّين قد نسوه. انظر، هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005. تحديدا الصفحات، 167 ـ 178 .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

51محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ن .م، ص، 207 ـ 208. (التشديد من عندي.(

52انظر بخصوص مقولة الإستخلاف ما قاله مثلا في كتاب الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد: « ويمكننا أن نستشهد هنا بالكثير من الآيات، التي تركّز بشكل خاص على ترقية الإنسان وترفيعه، وعلى القيم الأخلاقية والروحية التي ينبغي على الإنسان أن يتقيّد بها في حياته لكي يستحقّ هذه الرفعة وتلك الدرجة العالية التي أهّلته لأن يكون "خليفة الله في الأرض"». محمد أركون، الفكر الإسلامي .نقد واجتهاد، م. س، ص، 319. (التشديد من عندي). ومن أراد أن يطّلع بعُجالة على عيّنة من تلك الإيديولوجيا الإستخلافية، أحيله على كُتيّب تافه لفاروق الدسُوقي الذي يُعرّف بنفسه، في واجهة الكتاب، بأنه دكتور حائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية، والكتاب عنوانه: استخلاف الإنسان في الأرض. نظرات في الأصول الإعتقادية للحضارة الإسلامية، مكتبة فرقد الخاني، الرياض، والمكتب الإسلامي، بيروت 1986.

53محمد أركون، الفكر الإسلامي. قراءة علمية، م. س، ص، 131.

54محمد أركون، القرآن. من التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني، ن. م، ص، 18.

55محمد أركون، الفكر الإسلامي. قراءة علمية، م. س، ص، 67.

56محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م .س، ص، 30.

57ن. م، ن. ص.

58ن. م، ص، 22.

59ن. م، ن. ص. (التشديد من عندي.(

60محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، ص،) .318 التشديد من عندي.(

61محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، م .س، ص، 32.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

62 B. CROCE, Carteggio Croce- Vossler (1899-1949), in Scritti Vari, Bibliopolis, Napoli 1991, pp. 361-362.

63محمد أركون، ، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، ص، 318. (التشديد من عندي .(

64انظر مثلا ما قاله في الكلمة التي ألقاها أمام جمع من المثقفين والساسة العرب والغربيين بمناسبة حصوله على جائزة ابن رشد للفكر الحرّ: « المشكل هو مع الشعوب العربية ومع الصحافة ومع خطاب الشارع، والمدرسة لا تساعد أبدا، فهي متماشية مع الخطاب الشعبوي، المدرسة تستعمل الخطاب الشعبوي وهذا هو الواقع.«

65محمد أركون، ، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، م. س، ص، 223.

66يعترف أركون بخيبة أمل المستشرقين الذين يستنكرون عليه قائلين، حسب ما يورده هو شخصيا: « انظروا إلى هذه الفجاجة الناتجة عن مناهج آخر صرعة أو آخر موضة! أهذه هي البنيوية؛ أهذه هي الحداثة؟ نحن لا نريد ذلك». محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، ص، 150.

67إثر حوار مطول، أجراه معه سنة 1989، يقول هاشم صالح: « بعد أن تركتُ محمد أركون رُحتُ أفكر في حجم المعركة التي يخوضها بكلّ ملابساتها وتفاعلاتها وهالني الأمر. فكلّما اكتشفتُ أن حدودها قد أصبحت واضحة محصورة، كلّما اكتشفتُ أنها متشابكة، معقّدة، شبه لانهائية. هناك شيء واحد مؤكّد على كل حال: هو أن محمد أركون يخوض المعركة على جبهتين: جبهة الداخل وجبهة الخارج، جبهة أصوليّي المسلمين، وجبهة أصوليّي المستشرقين». انظر، محمد أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، م. س، ص، 335. (التشديد من عندي.(

68محمد أركون، الفكر الإسلامي. قراءة علمية، م. س، ص، 67.

69قولة هاشم صالح جائت في تعاليقه على كتاب: محمد أركون، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، م. س، ص، 206، هامش 48.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

70محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، م. س، وكلام هاشم صالح ورد في صفحة، 313. ثم يُضيف في نفس الصفحة: « بمعنى أنه ينبغي شرح كلّ كتاب مترجم عدّة مرّات لكي يُفهم على حقيقته.«

71هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، ن. م، ص، » .167 لهذا السبب قُلتُ أكثر من مرّة بأني معاصر للجيل الأوروبي الذي مات قبل ثلاثة قرون أكثر مما أنا معاصر للجيل الحالي.«

This file was downloaded from QuranicThought.com